الصحفي الثائر

د. إبراهيم عبده

الكتاب: الصحفي الثائر

الكاتب: د. إبراهيم عبده

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

عبده ، د. إبراهيم
الصحفي الثائر / د. إبراهيم عبده
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٢٠٩ ص، ١٨ سم.
الترقيم الدولى: ٦ – ٦٢٩ – ٤٤٦– ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٢٥٧٢٣ / ٢٠١٨

الصحفي الثائر

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

في هذا الكتاب

في هذا الكتاب سيرة الصحفي ثائر نادر المثال في تاريخ الصحافة المصرية، ولم يكن في المقدور نشر هذه السيرة قبل ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ذلك أن صاحبها كان سوط تأديب لبيت مُحَّد علي، ومؤرخنا دقيقاً لفضائح العصر ومباذل القصر..

ويمتاز يعقوب صنوع، أو أبو نظارة كما عُرف في التاريخ، بأنه كان أول من أنشأ مسرحاً في مصر، وأول من أصدر صحيفة هزلية كاريكاتورية في الشرق قاصيه ودانيه، وأول من أخرج مجلة بالألوان، وأول من نُفى من أصحاب الأقلام ، وأول من جاهد في سبيل مصر والسودان وكافح الاستعمار في كل مكان أربعة وثلاثين سنة وبطريقة لم يسبقه إليها إنسان..

وقد وفقت في أسفارى لأوروبا وأمريكا إلى الصحول على مجموعته الصحفية "أبو نظارة وأبو صفارة وأبو زمارة والحاوي" وغيرها من الصحف والمجلات كاملة لا ينقصها عدد، فأصبح لدينا الجدول الأصيل لسيرة أستاذ من أعلام صحافتنا، رأيت أن أترجم له في هذا الكتاب وأبسط بعض جوانبه الحافلة بالطرائف والعبر..

فاقرأ معي في هذا الكتاب تاريخ المسرح وكيف تطور؟ وتاريخ النكتة المصرية وما فيها من عمق وسخرية والكاريكاتير الخالق، والألوان البديعة،

والدراسات الرائعة والأزجال اللاذعة، وتصوير الحقائق وتفسير المسائل السياسية العليا منذ عهد إسماعيل إلى مطالع القرن العشرين..

ففي هذا الكتاب أعرض عليك صورة ممتعة للعناد الرائع المروع من أجل الفكرة والرأى السديد، لترى نفسك في هذا الكاتب الحر الذي رحب بالنفى والتشريد أيام الخديوى إسماعيل وآبى أن ينتظم في ركب الطواغيت أو يمضى في صفوف العبيد، وبقى أربعة وثلاثين سنة صلباً على الشدائد، قوياً على المحن، لا تتزعزع ثقته في وطنه أو مثله، ولا تقف دون رسالته حواجز أو عقبات، ولا تحول دون إعلان عقيدته سدود أو قيود..

إبراهيم عبده

أول إبرايل سنة ١٩٥٥

روح العصر

كان روح العصر الذي نشأت فيه الصحافة الشعبية يدعو إلى لون جديد من الصحف التي لم تُعرف من قبل في الشرق الأدنى، ولم يكن من طبيعة الأشياء أن تصدر صحفاً ساخرة إلا في البلاد المصرية التي ولى أمرها الخديوى إسماعيل،

وأشاع بالأزمات التي خلقها كثيراً من الفكرة الجديدة التي كانت منطوية في نفوس النخبة المنتقاة من أعلام الرأى الذين درسوا في مصر أو نهلوا من أوروبا.

ولي إسماعيل الأريكة الخديوية، فكان ضرورةً لمصر بخيره وشره، فقد كان الرجل مغرماً بالمظاهر معنياً بتقليد الأوروبين، يريد أن يأخذ حياة شعبية كما يأخذ ملوك أوروبا حياة شعوبهم واعتمدت في نفسه تيارات مختلفة من القديم والجديد، وتطاحن إرث الآباء والأجداد المنطوى على احتقار الشعب كبيرة وصغيرة، مع فكرة التقليد الذي يرفع من قدر الوطن ويضع له في الحساب وزناً واعتباراً، ودارت المعركة حامية الوطيس بين نفسية الحاكم الشرقي العتيقة وبين نفسية الأمير الذي يريد جديداً يماثل حياة الغرب المتحفز الوثاب.

وخرج إسماعيل من هذا الصراع العنيف يترنح من هول المعركة، فلا هو على سجية الأسلاف، ولا هو صورة من أمراء الغرب المحدثين، كثير التردد، يذهب مرة إلى أقصى اليمين، ويذهب أخرى إلى أقصى اليسار، فنجده يحتضن حيناً رجال المدرسة القديمة من الأتراك حتى أوغل عليه بذلك خونة الشعب وخصومه الطبعيين، ثم نراه حينا آخر يفتح صدره لنخبة من الشبان المجتهدين الذين درسوا في أوروبا وهم من أبناء الفلاحين، فأكبر بذلك الوطن والوطنيين، وفجأة ينصرف عن الأتراك والمصريين، فيجعل من بطانته وأصدقائه جماعة من الفرنجة يسمع إليهم ويصغى إلى نصحهم ويعمل بمشورتهم، وأن خالفت نصيحتهم مصلحة البلاد ودينها، وأن آتت أيضاً إلى خزانة الدولة وأغرقت الأمير في الديون..

ومن الأدلة على هذا الاضطراب الفكرى الذي كان يعتمد في نفس إسماعيل، موقفه من الصحافة والصحفيين، وموقفه من التمثيل والممثلين..

ولي إسماعيل الحكم فبدأ يصلح من جريدة (الوقائع) صحيفة الدولة الرسمية حتى رفعها إلى مقام الصحف "المعتبرة" كما يقول، ثم أنشأ إلى جانبها صحفاً شتى تصدرها الحكومة ولا تبخل عليها بالأدوات الأدبية والمادية، فكانت لها صحفاً يعسوب الطب، والجريدة العسكرية المصرية، وجريدة أركان حرب الجيش المصري، ثم روضة المدارس صحيفة التلاميذ والمعلمين.

فهذا الأمير الذي يصطنع حياة الأوروبيين وتفكيرهم يصدر الصحف على سبيل المحاكاة والتقليد، ثم يذهب إلى أبعد من صحف رسمية

تخضع خضوعاً شاملاً لتوجيهه وإرادته فيأذن بإصدار صحيفتي "وادي النيل وروضة الأخبار" وكلتاهما من الصحف الشعبية الأولى، ولكنهما تخضعان لتوجيه الحكومة وتتلقيان منها مقابل ذلك إعانة مالية مجزية، وهي إعانة مستخفية لا يعرفها عامة الناس أو خاصتهم، حتى تبدو الصحيفتان حرتين لا رقيب عليهما.

فإذا ظن بعض المجددين من الشبان المصريين أن إسماعيل ينهج نهج الغرب، فيمنح لمن يشاء ترخيصاً بإصدار صحف حرة، تقدم من بينهم اثنان، ونالا ترخيصا بإصدار صحيفة "نزهة الأفكار" وكتبا فيها كما يكتب الأحرار، فإذا هي مغلقة بأمر منه بعد صدور العدد الثاني.

وكذلك كان الشأن في أمور التمثيل والممثلين، كان يأذن للمثل أن يؤلف أو يترجم أو يعتلى خشبة المسرح، حتى إذا وُجد أنه تجاوز المفهوم في ذلك الزمان، عصف به وحرمه مهنته أو نفاه كما صنع مع صاحب هذا الكتاب الذي نترجم له، وقد حال فعلاً بين كثيرين من أبناء البلاد الشامية وبين الاستمرار في التمثيل حين وجد منهم انحرافاً في إشارة أو عبارة، ولم يبق الأعلى المسارح الرسمية وفي مقدمتها دار الأوبرا التي شهدت خيرة الفرق الأوروبية في سنوات حكمه.

ولم يكن من المحتمل أن تتجاوز الصحافة المصرية هذا المدى الذي رسمه لها إسماعيل، غير أن الحوادث كانت أقوى منه، بل ألزمته الحوادث بأن يفزع هو إلى الصحافة والصحفيين، يستعين بها وبهم فيما جد على وطنه من أحداث، الأمر الذي فرض عليه أن يفتح صدره للمصريين

والشاميين ليتخذوا من الصحافة مهنةً لهم، حتى أن الممثلين الذين عجزوا عن أداء رسالتهم التمثيلية لسبب أو آخر، رحبوا بتلك الظروف، وإنتقلوا إلى الصحف منشئين لها أو محررين فيها .

كانت من أهم الأحداث التي فتحت ثغرة في طبيعة الحاكم الشرقى، وفرضت عليه محاكاة الغرب محاكاة سليمة في تكريم الصحافة، الحرب التي قامت بين الأتراك والروس، وقد مستْ الحرب حياة المصريين مساً شديداً، بما كان يجب عليهم تقديمه لسلطان الأتراك من عتاد ومال ورجال، وأراد إسماعيل أن يتهرب من أداء هذه الالتزامات التي فرضتها الفرمانات المختلفة، فجمع مجلس نوابه، وعرض عليه العجز المالى، فأقره بالطبع على وجهة نظره، وفي هذا إعلان رسمى عن قصر يد الحكومة المصرية في القيام بالواجب المفروض عليها في محنة أمير المؤمنين وسلطان العثمانيين.

ثم كان إسماعيل يرى في اشتباك الدولة العلية في حرب قاسية مع الروس فرصة لتوسيع سلطانه، ولا يمكن أن يتم توسيع سلطانه إلا إذا تهيأ الرأي العام الأوروبي وتهيأ ، وتهيأ الرأى العام المصرى لقبول هذه الفكرة بكشف نواحى الضعف في دولة الرجل المريض، وذلك بذكر مساوئ الأتراك على صفحات الجرائد والمجلات ونشر مفاسد الحكم في القسطنطينية وآلياتها في الشرق والغرب على السواء وكانت تلك الحرب مفترق الطرق في رسالة الصحافة والصحفيين..

فقد نشأتْ عدةُ صحف، القليل النادر منها وقف إلى جانب السلطان، والكثير القادر فيها كان حرباً عواناً على مفاسد الأتراك وهلل إسماعيل لهذه الحرية التي نالتها الصحف، والتي كشفت بمقتضاها عن مواطن الضعف في الدولة العثمانية، ولم يفطنْ إلى أن حرية الصحافة مكنت للصحف وهي تتناول قصة الحرب وأسبابها من أن تعلن عن مباذل الملك في دولته وهي تقارن بين الدول الغربية الحرة وبين دولة الخليفة المريضة وما يدور في فلكها من دويلات، ولم يطلْ الزمن حتى سفرت الصحف المصرية ورفعت النقاب، وهاجمت في عنف وشدة حاشية الخديوى ويده المبسوطة من غير حساب، وتدخُلْ الأجنبي في مقدرات البلاد، وسلطة الحاكم المستبد الذي أفسد طبائع الناس ومد للرشى والظلم والعدوان.

وجاءت المصادفة برجل أشعل في النفوس لهيب الثورة بما نشرته له الصحف من مقالات، وبما ألقاه على الصفوة في المناظر والبيوت من الآراء والأفكار، وكان هذا الرجل شعلة متنقلة في بلاد الشرق جميعاً، واحتفلت به مصر احتفالاً منقطع النظير، وإستطاع في الفترة الوجيزة التي قضاها في البلاد أن يكسب كبار العلماء والفضلاء، ويكسب رجال السياسة والحكم، وينشأ مدرسة من الصحفيين والأدباء.

وكان السيد جمال الدين الأفغاني ومضة برقت في حياة خاصة المصريين لم ينطفئ نورها قط، فقد استمر هذا النور في تلاميذه جيلاً بعد

جيل، وإن كان توفيق قد استطاع أن يقصيه عن البلاد حين ولي أمور الحُكم، وكان في عهد أبيه– وهو ولي للعهد– من أشد أنصار الشيخ وأكثر رجال مصر إعجاباً به وبما نقله إلى البلاد من تيارات فكرية بقيت على مدى السنين..

كان جمال الدين الأفغاني يرحب بالممثلين والصحفيين أيما ترحيب، فقد كانت هاتان الفئتان في مقدمة من استعان بهم على أئمة ما يرجوه لمصر من تقدم وانتباه فكان يكتب للصحف ويسعى لأصحابها عند الحكومة لتمنحهم تراخيص الصدور، وكان يستمع إلى الروايات التي يزعم البعض تمثيلها، وكانت ندوات الأدب والفن تستيقظ في بيته منذ الصباح الباكر وتمضى إلى ساعة متأخرة من الليل، وكان يؤثر جماعة خاصة من أهل الفن والأدب بالحب والعطف والتقدير..

وكان من بين من آثرهم بالود والتأييد يعقوب بن صنوع صاحب هذه الترجمة فقد كان له موجهاً على نحو ما سنقرأ في هذا الكتاب..

فروح العصر كانت تفترض فيما تفترض من جديد أن تكون في مصر صحافة لم تعرفها من قبل، ولم يكن الجديد، تلك الصحافة الشعبية الحرة التي أصدرها جماعة من الأحرار، فقد عرفت تركيا وبعض بلاد الشرق العربي هذه الصحافة، بيد أن الجديد حقاً ما جاء به أبو نظارة في صحيفته الخالدة على التاريخ، وهي صحيفة كان فيها للمؤانسة والطرائف والفكاهات والرسوم مكان الصدارة، ولم يكن في صحيفة أخرى شئ من

هذا لعدة سنين، فأصبح ما جاء فيها من حكايات ومحاورات وصور حدثاً لم يعرف له نظير في الشرق من قريب أو بعيد.

ولاءمت (أبو نظارة) طبع صاحبهان بل لاءمت طبع العصر نفسه، وقد جاء في زمن تعددت فيه ألوان الحياة وتباينت غرائبها وأصبحت سجلاً لها يرويها على طريقة كتبنا الساخرة، وكانت صحيفتنا نعم السجل لتلك الحياة التي رقت ولانت، وماعت في بعض الأحيان!

إنظر كيف أخذ الناس حياتهم اليومية في عصر إسماعيل، أنك تدخل بيوت الأمراء والعظماء والأغنياء فتسمع إلى الموسيقى والأغاني، وتسمع توقيع نسائهم على البيانو أو أناشيد بناتهم في (مقابلات) الصديقات والقريبات..

وأنك لتدخل بيوت السادة القادرين فتجد أكثر من مجلة أجنبية للتجمل والأزياء، وتسمع حديثاً باللغة الفرنسية بين سيدات البيت وآنساته، وتكاد تنكر أنك في بيت شرقي وأنت تنصت إلى الموسيقى أو إلى الحديث أو تشاهد ربة البيت وبناتها جالسات إلى لوحات الرسم تقضين أمامها وجه النهار..

وأنك لتدخل بيوت المؤسرين فتجد الموائد قد أُعدت على الطريقة الفرنجية، أو تجد الصخب يملأ فراغ أصحاب البيت، فقد كانت بيوت القوم منتديات للسمر العابث في كثير من الليالي، وللرقص الخليع حتى

الصباح، وكان للخمر وغير الخمر مكان في سمر الرجال بل في سمر النساء بين آن وآن..

وأنك لتسمع الناس يحدثونك عن مباهج القصر الخديوي وما شهده من حفلات (الباللو) كما تقول صحف ذلك العهد، ويروى لك عامة الناس قبل خاصتهم ما دار في تلك الحفلات من الأوان الرقص الفرنجي، كما تنصت إليهم وهم يتندرون بملابس النساء والرجال، ويحكون لك عن الشراب والطعام، وما يصحب الشراب والطعام من موسيقى صاخبة أو حالمة، ويرتبون على ذلك كله أشياء وأشياء!..

وأنك لتقرأ في الصحف المعاصرة وفي مقدمتها الوقائع الرسمية، وصفاً ممتعاً لسباق الخيل، وهو السباق الذي كان يشارك فيه الخديوى ووزرائه وأعيان البلاد، وينهج نهجهم الفقراء من العامة، حتى اختلت موازينهم بالمراهنة والمقامرة، ومايأتيهما من فساد الحال وسوء المثال وذل السؤال..

وأنك لتذهب إلى قهوات الفرنجة أو إلى قهوات أبناء البلد فتجد السمار جلوساً فيها، قل منهم من ينصرف إلى صحيفة القهوة فيقرأها، وكثر منهم من يلعب النردء، الورق، وكثر منهم أيضاً من يحكى النوادر أو يروى الحكايات فيضحك المستمعون حتى يستلقوا على أقفيتهم، ويتنقلوا بها من مكان إلى مكان، وبذلك طفح قاموس النكات المصرية بأروع ما أثر عن المصريين من نكات، وإحتفظ لهم العصر بالصدارة في التنكيت والتبكيت على أنفسهم وعلى غيرهم من المواطنين، بل على غيرهم من

شعوب الأرض قاطبةً، وبذلك أصبحت القهوة المصرية في أيام إسماعيل ندوة للرواية والحكاية النكتية، ومكانا يخف إليه كل مفتن وأديب..

كان روح العصر يفرض على صاحب الترجمة أن يصدر صحيفته، فكل شئ في مصر جديد.. ارتفعت طوابق المنازل، وأنيرت الشوارع، وأبيحت الخمر في كثير من الأحياء التي ما كان يستطيع أن يشرب الخمر فيها مواطن من المسلمين أو المسيحيين، وجرت العربات بخيولها المطهمة في الشوارع والميادين المرصوفة، وانتشر دور التمثيل وفي مقدمتها دار الأوبرا الخديوية، وخفت العذارى إلى الحدائق العامة في جُنح الليل أو في وضح النهار، وصفت العربات في أطراف المدينة تزخر بما يندى له الجبين..

كل ذلك كان في حاجة إلى مؤرخ أو أديب، وكان إبن صنوع هذا المؤرخ وذاك الأديب، وأن اختلف الناس في شأنه، فقيل أنه صحفي، وقيل أنه ممثل، واختصم مؤرخوه فيما كانت عليه طبيعته، أكان صحفياً أم كان مؤرخاً وأديباً أم كان ممثلاً بعيد الصيت؟..

وفي تمثيلياته، مؤلفة ومعربة، تبين قدرة الممثل وتبرز ملكة النقد وتظهر شخصية الفنان المفتن..

وفي صحفه تروى الحقائق طبيعة يعقوب بن صنوع، الأديب الشاعر الثائر، والصحفى القارح الساخر، وأمام الصحافة الفكاهية غير منازع..

مدارج الطفولة

هذه قصة الفنان المفتن يعقوب بن صنوع، الفنان الذي خُلق في بيئته وجيله ما لم يعرفه من قبل جيله وبيئته، نروى تلك القصة منذ وُلد سنة ١٨٣٩ إلى أن قضى صاحبها في مطالع القرن العشرين..

هي قصة اليهودى المسلم الذي قرن بين دينين، لقد حملت فيه أمه اليهودية، وولدته مسلماً، هبة منها للإسلام والمسلمين وأصغاء منها لُوحى في قلبها، وتلبية لتعاليم العراف الذي أنبأها بالخبر اليقين..

حقاً أن مولد يعقوب يشبه سيرته الحافلة بأمتع ما أثر عن سيرة صحفي في تاريخ القرن التاسع عشر..

أن قصة مولده يرويها صاحبها في ذكرياته التي كتبها عن تاريخه بخط يده، وأخذنا على عاتقنا أذاعتها وتحقيق ما فيها من بيانات جانب الصواب في كثير من الحوادث والتفاصيل، غير أنها قصة ممتعة، ما كان لأحد أن يعرف دقائقها لولا أن صاحبها كتبها في ساعات من التجلى، ولم تسعفه تلك الساعات ليواصل كتابة هذا التاريخ الجميل فوقف به عند نفيه إلى باريس.

كان الولد الوحيد لأمه وأبيه، لم يرزقهما الله غيره من البنين، وقد واريا قبل مولده أربعة أطفال لم يروا نور الحياة إلا بيعوا ثم مضوا إلى جوار

بهم مخلفين الحسرة في قلب الوالدين اللذين كانا ينشدان طفلاً يخفف من غصة الحياة، وما أصعب الحياة على والدين يفقدان في كل سنة وليداً بعد قليل من ولادته المعسرة!..

يذكر يعقوب بن صنوع أنه مات لأمه أربعة أطفال، فاذداد هو في أحشائها نصحت لها صديقاتها أن تفزع إلى شيخ مسجد الشعراني فعنده التمائم والتعاويذ، وعنده المحصنات ضد موت الأطفال! وفيه من الصفات الطيبة ما يقربه إلى الله، فإذا استجار به من أجلها، قبل شفاعته وأبقى على جنينها وحفظ له الحياة إلى مدى طويل!..

وأن الأم الحزينة لتفزع إلى شيخ مسجد الشعراني، وهو رجل وقور شارف على المائة، فيه صلاح وتقوة، ترجوه أن يتوسل إلى الله أن يحفظ لها جنينها ويبقيه قرة لعيون والديه، وقال الشيخ الوقور وكأنه يكشف عن الغيب البعيد "أن ربنا سيبارك ثمرة أحشائك وسترزقين بولد" وكادت الأم تفقد من الفرح اتزانها، فإن الله سيبقى على جنينها! وهو ولد! وما أسعد أمهات ذلك الزمان حين يكون في بطونهن ولد، فأن ذلك يكبر من مقامهن عند أزواجهن ويبعدهن عن الحسرة التي تشعر بها كل أم تنجب بنتا! غير أن الشيخ الوقور يستكمل نبوءته بقوله.. "وأن نذرته للدفاع عن الإسلام فلسوف يعيش، أكسه من حسنات المؤمنين ليكون متواضعا، ولسوف يجد ما يريد بفضل بركة خالقه"!

وأصغت أم يعقوب إلى نصيحة الشيخ وأطاعت ما أمرها به وأقرها زوجها على أن يهب ابنه للإسلام والمسلمين، غير أنه اعترض في أول الأمر

على فكرة كساء الطفل المرتقب من حسنات المحسنين، واعتبر في ذلك مهانة لا تليق به. وهو يتمتع بالحظوة لدى البلاط ويستشيره الأمراء في مسائلهم الخاصة غير أن الزوجة أصرت على أن تلبى نصيحة شيخ الضريح بحذافيرها لتضمن سلامة وليدها حين يرى النور..

ويذكر أبو نظارة أنه حين كبر حفظ القرآن وعاهد والدته على أن يوفى نذرها وأن يجند نفسه لخدمة الإسلام والمسلمين، ويحكى لنا عن مولده فيقول "وما أن فتحت عيني لأرى نور الحياة حينما وصلت إلى وادى الدموع حتى انزلقت من بين يدى المولدة التي كانت في استقبالي. وظللت ثلاثة أيام بين الحياة والموت دون أن يعرفوا أن رأسى قد شج، ولكن كان مكتوباً على أن أعيش لأؤدى رسالة مقدسة ألا وهي مكافحة الأباطيل التي تفرق بين المسلمين والمسيحيين، بإظهار سماحة القرآن وحكمة الإنجيل، وهكذا تتسنى لى الملاءمة بين قلوب الفريقين".

ومن الطريف أن يعقوب بن صنوع لم يشر قط في تاريخه إلى أنه ولد من أبوين يهوديين، مع أن جميع الكتب وكل من ذكره عابراً أو محققاً أكد هذه الحقيقة التي ينطق بها لقب الأسرة، وتنطق بها معالم وجهه اليهودي الأصيل، وخاصة عينيه، وفيهما من نظرات اليهود الشئ الكثير، وأن كان قد رد ما فيهما إلى الرمد الذي آته وهو صغير، وبقى يلازمه مدى حياته لافتقار أبويه طبيباً أخصائياً يعالج ما أصاب عينى ولدهما من هذا الداء الثقيل، غير أن صحفياً أجنبياً زار مصر وكتب بعد عودته في سنة ١٨٧٩ عن يعقوب ابن صنوع فصلاً ممتعاً أنبأنا فيه عن مرض عينيه، وحلل المرض

وهو يحكى لنا عن المترجم له بقوله "...ومن البداهة بمكان أنه أستاذ من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، ومن أخمص قدميه إلى قمة رأسه، فلنتخيل رجلاً ربع القامة أصلع نوعاً إلا من بضع شعرات سوداء متناثرة، وهي من السواد الخاص الجميل الذي يميز الجنس الإسرائيلي. أنه مصاب بنوع من الرمد أو بالأحرى بشئ من الضخامة في العينين ناشئة فيما يظن من توهج الرمال في فلسطين، وقد انتقل إليه أثر هذا التوهج بطريق الوراثة من جيل إلى جيل".

ثم يستطرد الصحفى متحدثاً عن المفارقات في (يهودية) يعقوب بقوله "وكثيراً ما سمعت حولي العبارة الآتية: أن في عينى يعقوب صنوع ذاك اللهب الوهاج الذي نراه في عينى البارون جيمس روتشلد وهى الصفة الوحيدة التي تجمع بينهما"..

"لقد أصابوا كبد الحقيقة، ذلك لأن يعقوب صنوع لم يتسم بأية صفة من صفات رجال المال، فمزاجه ثائر على الأرقام والتشكيلات الحسابية إلى أبعد مدى بل أن الخلاف مستحكم الحلقات بينه وبين علم الحساب منذ نعومة أظفاره..".

هذا رأى الصحفى في كاتبنا العظيم، وقد أخطأه التوفيق في تقدير كفاية المترجم له في شئون المال والحساب، وأن كفاحه وصلاته فيما بعد برجال الحكم والمال لدليل على أن كثيراً من صفات آل إسرائيل لا يزال لها مكانها المقدور في نفسية الكاتب الأديب!..

حقاً أن المترجم له لم يقم وزناً لمغريات الخديو إسماعيل حين قرر مخاصمته، ومضى في هذه الخصومة إلى نهاية الشوط، ولم يقف خصومته عند إسماعيل الخديو الذي نفاه بل مضى يجاهد ابنه الخديو توفيق، ويكافح معه أنصاره من الوزراء ورجال الاحتلال، وكان في مقدوره أن يحصل على المال الوفير إذا مشى في الركب وانتظم في صف المنافقين وطلاب المصالح، إلا أن هذا كله لا ينفى أن عامل الوراثة أهله للكفاح المادي، فانتصر في باريس، وحصل على المال اللازم الذي مكنه من تخليد اسمه في التاريخ..

ثم نصغى إلى صاحب التاريخ يروى تاريخه فيقول "وحين بلغت الثانية عشرة من عمرى كنت أقرأ التوراة بالعبرية والانجيل بالإنجليزية والقرآن بالعربية وأفهمها تماماً. وكان أول شعر نظمته باللغة العربية مديحاً لناظر المدرسة الذي كان يعاقب التلاميذ الذين دأبوا على الضحك منى بسبب عيني المحمرتين، وقد تلوت هذا الشعر على والدى، وكان يقرض الشعر، فبصرنى بأخطائي فيما نظمت ونصحنى أن أصيغ قصيدة في مدح الأمير أحمد حفيد مُحَمَّد علي، فكتبت قصيدة طويلة قدمها والدى للأمير الذي لم يصدق أن صبيا في سن الثالثة عشرة يستطيع أن يكتب هذه الأشعار التي- بيني وبينك-! لم تكن جيدة، وقال لأبي أنه يريد أن يرى هذا الطفل ذا الذكاء الخارق"..

وتم لقاء يعقوب بالأمير، وكان أبوه قد أوصاه حين يحظى بهذا اللقاء أن يتقدم فيقبل يد الأمير باحترام وتوقير، وفي هذا اللقاء تكشف طبيعة الصبى الثائر على الأوضاع والتقاليد. وهو يرويها لنا في بساطة ووضوح لا

يشكك في صحة معظمها، ومستقبل جهاده ينبئ عن جوانب الصدق فيما حكاه عنها "لقد كانت قاعة الاستقبال خاصةً بالزائرين عندما دخلت وقدمتي والدى إلى الأمير وهو يقول: هذا هو الشاعر الصغير الذي يطلب شرف لكم يديكم أما أنا فقد حياته بتلك العبارة البسيطة "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته" فنهزني أبي بعنف وقال لي بصوت خفيض "قبل يده أيها التعس" فأجبته: لا، لن أقبلها، فما كان من والدى إلا أن هددنى ولكنني تماديت في الرفض"..

ويذكر الصبى الصغير أن الأمير لاحظ هذا اللفظ الذي شغل الابن وأباه فاستوضح الوالد أسبابه غير أن يعقوبا سبق أباه إلى جواب حازم في كبرياء ملحوظة، وتوجه إلى الأمير قائلاً "لا أدرى لماذا يريد والذي منى أن أقبل يدكم الملكية، هل أنت أمام أو قسيس أو حاكم؟ لا أنى إنسان مثلك، لا بل أنا أعرف فرض الشعر وأنت لا تعرفه"..

ويعلق المترجم له على ذلك بأن هذه الكلمات وأن نزلت على أبيه نزول الصاعقة إلا أنها كانت مفرقا من مفارق الطرق التي صادق حياته، فإن الأمير الذكي بدت عليه علامات السرور "فهنأنى وأرسلني على نفقته لأتلقى العلم في أوروبا" ثم يمضى يعقوب فيقول أنه أمضى عدة سنوات في أوروبا فلما عاد نزل قضاء الله في الأمير الكريم الذي أولاه "نعمته" وفي أبيه أيضاً، فوجد نفسه رب أسرة، ليس له مال يغنيه وأن كان له علم تام بلغات أربع، كانت هي كل رأس ماله الذي تقدم به إلى إحدى المدارس الحرة التي قبلته مدرساً بها، وهكذا أقام أوده بما تدره عليه المدرسة من

أجر، ووجد وقتاً طيباً للتمكن من اللغات التي يعرفها وأضاف إليها لغات أخرى حتى أنه استطاع حين بلغ الخامسة والعشرين أن يجيد ثماني لغات كتابة وحديثاً بل تمكن منها إلى حد أجادى قرض الشعر بها جميعاً.

ويؤكد الصحفى الإنجليزي المشار إليه في أول حديثنا أن (أبو نظارة) كان يجيد في سنة ١٨٧٩ "العبرية والعربية والتركية والانجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية والبرتغالية والأسبانية والمجرية والروسية والبولنية" وفي قول هذا الصحفي الرحالة الذي ربطته الصلات بالمترجم له ما يؤكد صحة البيانات التي ذكرها يعقوب في المخطوط الذي سُجل فيه تاريخه، بل زاد الرحالة على ما ذكره أبو نظارة أربع لغات أخرى يبدو أنه في سنة ١٨٧٩ لم يكن قد حصلها أو أجادها إجادة تامة، على أن صحف يعقوب التي أصدرها في باريس أكدت ما ذهب إليه المترجم له والصحفى كلاهما بما احتوت عليه بعض نسخها من لغات مختلفة بلغ عددها عشراً أو يزيد..

ويصف محرر جريدة "سنتر دي ريفيو" طرائق العيش التي اتبعها أبو نظارة فيقول أنه: "كان ينتقل من قصر إلى قصر ومن خان إلى آخر ليعلم أبناء الخديوى والباشوات من صبيان وبنات اللغات والرسم والموسيقى، ولا أستطيع أن أجزم بأبو يعقوب صنوع لم يكن أستاذاً في علم الرقص.. فإنه قادر على كل شئ إذا ما عزف بصفارته".. ويذكر أبو نظارة من بيانات ما يؤكد أقوال المحرر المذكور ويزيدها تفصيلاً فيروى أن بعض الشخصيات المدنية والعسكرية التي كانت تحكم مصر في أواخر القرن التاسع عشر تلقت عنه دروساً خاصة أو تتلمذت عليه في المدارس الحرة أو الأميرية،

فإنه أمضى بضع سنين مدرساً أول في الهندسه وعضواً في لجنة امتحان المدارس الأميرية..

صورة لباس يعقوب بن صنوع حين كان يخطب في أوروبا أو يحضر حفلة رسمية

ويحكى يعقوب في تاريخه صلته بالخديوى إسماعيل:

فيذكر أنه أعجب به قبيل ولايته للحكم فقد ظن أنه سيكون علماً على المدنية والحرية، فلما تربع على كرسى الخديوية مدحه في قصيدة عصماء..

وينتقل يعقوب من التحدث عن الخديو وعلاقته به إلى المجهود الذي بذله لتعريف الغرب بآداب اللغة العربية والدراسات الإسلامية فترجم قصائد من لغة الضاد إلى اللغة الإيطالية، ثم نشر دراسات عميقة من الآداب الإسلامية في الجرائد الإنجليزية ثم يقول "وبينما كنت أطرى الحضارة الأوروبية في جرائد الشرق، كنت أكشف في الصحف الأوروبية عن جمال الشعر العربي وعمقه" ثم انصرف أبو نظارة إلى تأليف التمثيليات باللغة الإيطالية فكتب ثلاثاً منها عن العادات المصرية لقيت نجاحاً كبيراً على المسارح الإيطالية في الشرق، بل لقيت النجاح في بلاد دانتى نفسها..

الفنان المفتن:

قص علينا أبو نضارة كيف ولد وكيف ازدلف إلى بيوت العظماء ينشر فيها ألواناً من الفنون الرفيعة، وبين لنا أنه كتب شعراً ونثراً في

الصحف السيارة وأعلن فيما كتب عن حضارة الشرق ودين الإسلام، وخلق له مدرسة من المدنيين والعسكريين الذين كان لهم في تاريخ مصر- فيما بعد- تاريخ ثم أخذ ينشئ التمثيليات ليشبع بها نفسه المطبوعة على الحكاية والرواية والنقد المباح، وكان نجاح تمثيلياته الإيطالية الثلاث حافزاً على المضى فيما أهله له طبعه، فعزم على أن يقيم مسرحاً قومياً مصرياً، وهو عمل فنى لم يسبقه إليه أحد في مصر.. ولم يكن إنشاء مسرح مشروعاً سهل التنفيذ، ولكنه توكل حين عزم متشجعاً بما يبديه الخديوى إسماعيل نحو تأييد المسارح الفرنجية وفي مقدمتها الأوبرا الإيطالية والكوميدي فرانسيز، وهما مسرحان جميلان بالقاهرة..

كان ذلك في سنة ١٨٦٩ حين فكر يعقوب في تأسيس مسرح للوطنيين تعرض على خشبته تمثيليات عربية، وكان ذلك حدثاً جديداً وابتكاراً غريباً، فإلى ذلك الحين لم يكن أحد قد كتب أو مثل على مسرح وطنى أمام نظارة أو متفرجين، ويقول المترجم له "فألفت حينئذ فودفيل قصيرة تتخللها أشعار ملحنة تلحينا شعبياً"، وقد مثل تلك الفودفيل "في القصر أمام باشوات وبيكوات البلاط الخديوي فضحكوا لها من أعماق قلوبهم".. وشجعوه على أن يعرضها في حديقة الأزبكية وكانت مشهورة بمسرحها القائم في الهواء الطلق..

وتوكل يعقوب- كما يقول- وقرر إنشاء فرقة تمثيلية، واستغرق ذلك أسبوعين تمكن خلالهما من تكوين تلك الفرقة من بعض تلاميذه الذين تتراوح أعمارهم بين السادسة عشرة والعشرين، وهم جميعاً من

الذكور.. وتخصص واحد منهم في تمثيل أدوار النساء!.. ثم أقيمت الحفلة الأولى وحضرها رجال البلاط والوزراء، وأقبل معهم أكثر من ثلاثة آلاف مشاهد بين أوروبي مقيم ووطني أصيل ليشاهدوا هذه البدعة الجديدة.. تمثيلية باللغة العربية!..

ويؤرخ لنا أبو نظارة فيما يرويه عن فرقته سيرة المسرح المصري الأولى، وهي سيرة لا يعرفها المصريون، ومن حسن طالع هذا التاريخ أن صاحبه عنى بتفاصيله وأتاح لنا أن نقف على كثير من أخباره المستخفية، والتي لم يذكرها مؤرخ من المؤرخين، وهو يحدثنا عن الفرقة التمثيلية العربية الأولى حديثاً شائقاً فيذكر أن الممثلين الشبان حفظوا أدوارهم عن ظهر قلب ولكنهم كانوا يرتعدون خوفاً قبل رفع الستار "فرأى أستاذهم– أبو نظارة– أن يشجعهم، فوقف على خشبة المسرح وحوله الممثلون وتحدث إلى النظارة ليعطيهم فكرة عن الفن المسرحى، وأخذ يقدم أفراد الفرقة للجمهور، وطلب منه أن يغض الطرف عن الهفوات أو العجز ع التبريز، على اعتبار أنها التجربة الأولى التى تقوم بها أول فرقة تمثيلية عربية في وادى النيل ويمضى قائلاً : "ثم ألقيت خطاباً عن فوائد ومباهج المسرح وختمت كلمتى بمدح الخديوى"..

وقد أعادت تلك الخطبة الثقة إلى قلوب الممثلين فأدوا أدوارهم كما لو كانوا أهل خبرة ومن أعلام الممثلين، ويذكر يعقوب أن "سرور وحما الناس في ذلك اليوم لا يوصفان، فقد طلبوا إعادة ثلثي مناظر الفودفيل وحملوني على أكتافهم، وبكيت لأول مرة من الفرح"..

خلق يعقوب بن صنوع بفرقته فكرة المسرح العربي في مصر الحديثة، وهي فكرة لم يسبقه إليها أحد من المصريين أو الشاميين الذين نزحوا إلى صر بعد ذلك واتخذوا من التمثيل مهنة وحرفة غير أن المترجم له لم يرض أن تعيش فرقته عيالاً على تلاميذه، غير مستكملة أدوات الفرق الجديرة بهذا الاسم، وقد استطاع أن يؤلف فرقة محترفة ضمت العنصر النسائي ليقوم بالتمثيل بدلاً من الرجال المتنكرين في ثياب النساء!.. فعثر على فتاتين فقيرتين، وتمكن من تعليمهما بنفسه القراءة في شهر واحد، ومرنهما على التمثيل فأديا أول الأمر أدواراً قصيرة خصصها لهما في تمثيلياته، وساعدهما على النجاح شباب نضر ووجه جميل وخفة نادرة في ذلك الزمان، وقد كان لظهورهما على المسرح أحسن الأثر في نفس الجمهور الذي استقبلهما بالتشجيع والتأييد وأحاطهما بالرعاية الملحوظة في إقباله على كل تمثيلية لهما فيها نصيب..

ويجب أن يدخل في اعتبار من يؤرخ للتمثيل العربي أثر البيئة في التوجيه وفي النجاح أو الإخفاق، فقد كان إنشاء مسرح عربي في عهد إسماعيل مجازفة يتعرض فيها صاحبها تزمت المتزمتين وخصومة الرجعيين ومحاربي البدع، وما أعجبها من بدعة تصرف الناس عن العمل الصالح في عرفهم!. وتبيح وقوف الأنثى إلى جانب رجل تطارحه علانيه الغرام أو يطارحها الحب والهيام!. لذلك يعتبر نجاح يعقوب في مسرحه انتصاراً رائعاً للفن وهزيمة مروعة لأهل الرجعة وهم كثيرون..

ويقص أبو نظارة مدارج النصر التى نالها في عمله، فيذكر أن مسرحه ظل يعمل سنتين عرض فيهما على خشبته اثنتين وثلاثين تمثيلية من تأليفه، منها الملهاة ذات الفصل الواحد والمأساة ذات الفصول الخمسة، إلى جانب كثير من التمثيليات التى ترجمت عن الفرنسية، ثم يقول "وبعد مضى أربعة أشهر على تأسيس مسرحي، دعاني الخديو إسماعيل وفرقتي لأمثل على مسرحه الخاص في القصر، وقد مثلت ثلاث روايات وهي: "آنسة على الموضة" و"غندور مصر" و"الدرتان" وكانت كلها من نوع الملهاة الأخلاقية، وبعد أن شاهد الملهاة الأولى والثانية استدعانى وقال لى أمام وزرائه ورجال حاشيته: "أنت مولينا وسيخلد أسمك" بيد أنه عندما شاهد التمثيلية الثالثة "الدرتان" وكانت تعلن عن مساوئ تعدد الزوجات، وإنه سبب التصدع الذي يحدث في الأسرات بل سبب الجرائم التي تغشاها، تحول سروره إلى غضب وأرسل يطلبني قائلاً بلهجة تهكمية "سيدي موليير مصر، أن كانت كليتك لا تحتملان إرضاء أكثر من امرأة واحدة فلا تجعل الغير يفعل مثلك"!.. وقد وجد رجال الحاشية كلام سيدهم في محله فنصحوني بأن أشطب هذه التمثيلية من قائمتي على الرغم من تقديمي إياها للجمهور ثلاثاً وخمسين مرة، ولكننى اضطررت إلى الرضوخ إبقاء على حياة مسرحي"..

كانت لفتات إسماعيل عاملاً قوياً من عوامل نجاح مسرح يعقوب بن صنوع، فقد كان لقب "موليير مصر" الذي خلعه عليه، يشبه من قريب براءة رتبة عالية منحها له الخديوى الكبير وكان للرتب فعل السحر في نفوس عامة الناس وخاصتهم، لذلك تجنب أبو نظارة غضب الأمير واسقط

من حسابه تمثيلية "الدرتان" ومضى قدما في مسرحه موضع تقدير الرواد من كل طبقات الشعب..

وبعد أكثر من مائتى عرض لمسرحياته طلب منه إسماعيل أن يمثل ثلاث قطع في حفلة ساهرة كبرى، وقد نال إعجاب الحاضرين وعلى رأسهم الخديوى الذي صفق له، غير أن كبار الجالية الانجليزية الذين حضروا السهرة لاحظوا السخرية اللاذعة التي أطلقها كبير الممثلين على جون بول وهو يؤدى دوره على المسرح، فحفظوها له ومضوا بالدس عند الأمير حتى أقنعوه عن طريقهم المباشر أو عن طريق صنائعهم في القصر بأن التمثيليات التي يقدمها أبو نظارة تتضمن تلميحات وإيماءات خفية ضد سياسته وسياسة الحكومة، وفيها خطر عاجل على نظام الحكم ومقدرات البلاد، فأمر إسماعيل بإغلاق المسرح، وبدأ منذ ذلك العهد اضطهاد يعقوب بن صنوع..

ويؤرخ معاصروا (أبو نظارة) لتمثيلياته وأهدافها، وللدور الطبعى الذي أعد نفسه له، فيذكرون أنه أنشأ المسرح العربى ليعبر به عما يختلج في أعماق نفسه من انفعالات، فأضحك الناس حين طرب قلبه، وأبكاهم حين سالت دموعه الصادقة على وجنتيه، وكانت ملاحظاته لاذعة وبعض مرحه ساخراً، وكان حين تنبض نفسه بالألم لما يراه من حياة مواطنيه البائسين الشاكين "يتقمص في جسمه جنسه الذي لا يحاكيه جنس في العالم، والذي تحمل في ماضيه الطويل مختلف الاعتداءات واجتاز شتى العقبات والاضطهادات، ولكنه استطاع أن يعيش رغم ذلك كله على

خشبة المسرح، فيعلن عن مواطنيه ومثلهم، ويحكى أما لهم وآلامهم، حتى رأت الحكومة أن ضحكاته مثيرة للخواطر ودموعه مهيجة للأفكار، فأغلقت مسرحه، وظننت أنها قد حبست لسان الرجل من أن ينطلق على خشبة المسرح، ونسيت أن له قلما سينطلق بعد قليل على مسرح الحياة..

وقبل أن نسدل الستار على قصة الممثل الكبير نتركه يحدثنا عن الطرائف التي صادفته في أثناء عمله المسرحى، فهي: وأن تكن فكاهةً لقارئها، إلا أنها عند المؤرخ شيئ جدير بالتسجيل وهو يروى سيرة المسرح المصري، حتى يلاحظ المختصون على ضوئها التطورات التي حدثت لهذا الفن في بلادنا، ويذودوا المجهودات الضخمة التي انتهت بمسرحنا إلى شئ قريب من النضج والاستواء..

يذكر أبو نظارة أنه كان مديراً للمسرح ومؤلفاً لتمثيلياته، وكان يقوم في بعض الأحيان بمهمة الملقن، وقد حدث أن تغيب الملقن في إحدى الليالى بسبب وعكة أصابته، ولما قال المترجم له لا يستطيع أن يقرأ في تلك الظروف لضعف بصره الشديد فقد جاء بشاب وحدد له مكانه بين الكواليس ليلقن الممثلين، وطلب إليه أن يقرأ الحوار بصوت منخفض ويترك الممثل يتبعه غير أنه لم ينفذ التعليمات حتى اضطرب الأمر على الممثلين وكادوا يعجزون عن أداء أدوارهم، ولم يقف عجز الملقن عند هذا الحد بل أطل برأسه على المسرح وقال لأحد الممثلين "لا تسرع هكذا ألا تعلم أن العجلة من الشيطان؟. أتركني ألقنك وكرر الكلام من بعدى".. فانفجر الجمهور ضاحكاً!.. فما كان من يعقوب إلا أن شد على أذنى

الملقن الذي ضايقه ذلك، فأنطلق مغتاظاً إلى المسرح "وقذف وجه الممثل المسكين بمخطوط التمثيلية، ونشب عراك بين الرجلين، واضطررت إلى الظهور على المسرح لأفض المعركة بين ضحكات الجمهور وتهليلة"..

ويعلق أبو نظارة على ذلك بقوله "ولو وقع هذا الحادث في أحد المسارح الأوروبية لاعتبر فضيحة من الفضائح، أما في مسرحي الذي كان في ذاك الوقت في دور الطفولة فقد لقى الحادث نجاحاً كبيراً، وفي الليلة التالية أعلن الجمهور عن رغبته في مشاهدته مرة أخرى"؟!!..

ويحكى الفنان المفتن ألواناً من القصص عما صادفه في عمله المسرحى، وهو يصور لنا بساطة الشعب الذي كان يمثل له براءة سريرته وسماحة خلقه، فقد كان النظارة يتدخلون في التأليف والتمثيل!.. ويفرضون آراءهم على المؤلف رضى أو سخط، وما كان له إلا أن يرضى أو ينصرف عنه المعجبون من رواد مسرحه، وهو يذكر على سبيل المثال أنه كتب عدداً كبيراً من التمثيليات المضحكة وقدمها لمسرحه، وكان معظمها يتألف من فصل واحد، ثم رأى من واجبه أن يضمنها نصائح أخلاقية فألف لذلك الغرض تمثيلية من فصلين، بطلتها فتاة لعوب عبثت بكثير من الرجال، حتى ساءت سمعتها فهجرها جميع الناس وأصبحت وحيدة لا معين لها، ولم يرض الجمهور عن هذه النهاية المؤلمة للممثلة، وكانت فتاة قادرة حقاً- بما أوتيت من جمال وفتنة- على انتزاع إعجاب النظارة على اختلاف مراتبهم وأسنانهم، فاستقبلت التمثيلية بالصفير في اليوم الثانى. فبرز يعقوب على المسرح مستوضحاً أسباب غضب الرواد وصفيرهم،

فأجابه شاب قائلاً "أنت تعلم يا موليير أن صفصف– وهو اسم الممثلة– فتاة شريفة.. وينبغي أذن أن تجد لها زوجاً جديراً بظرفها وجمالها.. عليك أن تخصص الفصل الأخير من تمثيليتك لزواجها أن أردت أن نصفق لك وإلا فأننا لن نختلف إلى مسرحك أبداً" ويضطر المؤلف إلى النزول على رغبة الجمهور فيزوج الفتاة اللعوب آخر الأمر وأن خالف ذلك منطق الرواية والعبرة فيها!

ويؤكد لنا أبو نظارة أن مستوى المتفرجين ارتفع ارتفاعاً ملحوظاً في السنة التالية لإنشاء مسرحه، وأنهم كانوا يميلون إلى الروايات الجدية ويستقبلونها استقبالاً حسناً، وتجاوب المؤلف والممثلون مع جمهورهم فقدم لهم تمثيليات مترجمة عن اللغات الفرنسية والإيطالية والإنجليزية، غير أن ذلك لم يمنع القوم من التقاط الهفوات وتسقطها وقلب المسرح من الجد الخالص إلى هزل يتندر به الجيل جميعاً.

ويضرب أبو نظارة مثلاً على تلك الهفوات بأنه كلف إحدى الممثلات بأن تقوم بدور الحبيبة الوالهة أمام ممثل كانت– على غير علم من يعقوب– تكرهه ولا تطيقه مع أن الممثل كان ولهان حقاً حتى أنه طلب يدها فردته ساخطة، واضطرت الممثلة الحسناء أن تقول في التمثيلية أمام النظارة لذلك الممثل البغيض إلى قلبها "أسأل نجوم السماء التي تحاكة جمالك عن سهادي.. أني أقضى الليالى لا أذوق طعم الراحة فأناجيها وأنا أفكر فيك.. يا نور عيني الذي يعشقك قلبى وتعبدك روحي! آه لو تعلم كم أنت عزيز علي؟ لن تسحر فتيات أخر بنظراتك الألهية وابتساماتك

الملائكية. الرحمة الرحمة بعصفورتك ودعها تؤمل في أن تكون عبدة حبك! آه لو هجرتني فلسوف أموت. ولكن لو أنى كنت واثقة من زيارتك لقبرى لرجوت الله أن يسترد إلي روحى.."

وحين استمع الممثل إلى حديثها راقت التمثيل وأعجبته المعانى، فهمس إليها قائلاً "ليبارك الله المسرح الذي يجعلك تتنازلين عن كبريائك ويضطرك إلى أن تبوحى لي بحبك أمام آلاف الناس" وغاظها القائل والمقول فنسيت الممثلة أنها على المسرح، ودفعها غضبها مما سمعت إلى صفع الممثل المسكين صفعة قوية! ثم التفتتْ إلى الجمهور وقالت له في غضب "أن كلمات الحب التى وجهتها لهذا الفتى المغرور الغبى لا تعبر عن إحساسي الحقيقي نحوه فأنى أوثر العمى على حبه. أن مؤلف الرواية موليير مصر هو الذي وضع تلك الكلمات على لساني"!

وذُهل أبو نظارة مما شاهد وسمع، فقط وقفت التمثيلية، وقام الممثلان برواية أخرى استقبلها الجمهور بالتضفيق الحاد، فقد راقه حوار الممثلين وما تضمنه من مفارقات، فلما استؤنف تمثيل الرواية طالبوا كما هي العادة في التقاط الهفوات بإعادة تمثيل هذا الفصل المضحك، وقد أُعيدت فعلاً التمثيلية نحو شهر ولم تخل ليلة من صفعة يتلقاها الممثل من زميلته ويضحك لها الجمهور من أعماقه، وبذلك خفت مرارة الممثلة وأصغت بالمودة إلى زميلها، وبلغ السرور من النظارة مداه والإعجاب بالممثلين أقصاه حين علموا أن تمثيل هذا المنظر الدخيل قد قرب بين الخصمين حتى تلاقيا بعد شهر زوجين حبيبين..

ويقتصد أبو نظارة في رواية النوادر التي مرت بحياته المسرحية، ويرى أنها جديرة بكتاب، ليته قام بتأليفه! فما أحوج صناعة التمثيل في مصر إلى سجل لتاريخها القديم، وهو تاريخ نجهله، وأن كنت اليوم قد عرضت نشأته، وهي نشأة قديمة، وهي أقدم أو تكاد أن تكون أقدم من نشأة الصحافة الشعبية نفسها، وحسبنا ما رواه في هذا الشأن صحفينا الكبير يعقوب بن صنوع، فقد ختم حديثه عن تلك النوادر بقصة طريفة، فيها تصوير لخبث الخبثاء وسذاجة الساذجين.

قال وهو يحدثنا عن متاعبه أنه عرض رواية (ليلي) لأول مرة على مسرحه "التياترو الوطني" وهي مأساة كتبها له صديقه الشيخ مُحَّد عبد الفتاح، وحضرها الوزراء وكثير من العلماء والشعراء، وكان في التمثيلية منظر لطاغية يقتل أولاد سيد القبيلة الأربعة، وكان في القاعة لحراستها شرطيان حديثاً العهد بخدمة البوليس، فانتهز أحد الخبثاء من المتفرجين تلك الفرصة وقال للشرطيين بصوت خفيض "أيرضيكما أن تقترف هذه الجرائم أمامكما؟" وما أن سمع الشرطيان الجاهلان هذا الكلام حتى قفزا إلى خشبة المسرح وقبضا على الممثل الذي كان يقوم بدور الطاغية! "ودور القاعة بقهقهة المتفرجين وتصفيقهم" وكانت تلك الحادثة مثار التعليق في جميع الأوساط؟!

ولم تقف الحوادث عند ذلك الحد، فقد كان هناك بعض النظارة الذين لا يخلو فصل من تعليقاتهم العلنية أثناء التمثيل، وكانوا يوجهون كثيراً من الأسئلة والإيحاءات إلى الممثلين والممثلات، كأن يقولوا لأحدهم

"سوف نرى أن كنت ستتركه يخطف منك محبوبتك"؟ ثم يقولون لإحدى الممثلات "كيف تفضلين هذا الأهبل المتعجرف على هذا الشاب الغني الوقور الذي يموت في حبك"؟ وكان أبو نظارة يختفى وراء الكواليس ليلقن الممثلين إجاباتهم المناسبة على ملاحظات الجمهور، وكان الحديث بين ممثلى فرقته وبين النظارة يطول أحياناً، بل قلما كانت تنتهى تمثيلية له من غير أن يلبى طلب الجمهور ويظهر بنفسه على خشبة المسرح ويقول شيئاً مضحكاً وجديداً!

وقد أوحتْ هذه المتاعب إلى المترجم له بأن يؤلف مسرحية ساخرة ينقد في أكثرها ممثلى فرقته وموظفي مسرحه..

تلك قصة المسرح العربى المصرى في نشأته وهي قصة فيها شئ من السذاجة والبساطة الملحوظة، غير أنها قصة تؤكد أن المسرح في مصر لم ينشأ إلا بين يدى مصرى، وأن أحداً من البلاد العربية المجاورة لم يكن له فضل في إنشائه ، وهي قصة تؤكد أن هذا المسرح الساذج قد استطاع أن يباشر مهمة تعليمية كانت مصر تفتقدها بين أدوات التعليم الأخرى، وهي قصة تؤكد أن صاحب المسرح كان ممثلاً بطبعه، فأن حياته– كما سنعرفها في مصر والخارج – تمثيلية رائعة مروعة، وهي قصة تبين أن المسرح قد رفع عن قلب الممثل الكبير غصة كانت حبيسة فيه بما مثل على مسرحه من أدوار تعلن بؤس البائسين وتروى حكاية الأحرار المتطلعين، وتنقد مساخر العصر وتقاليده البالية وتفتح عينى الشعب خاصته وعامته، وتبصره بما ينبغى عليه من واجبات إزاء الطغاة الظالمين.

لم يكن عجباً أن ينشأ في مثل تلك الظروف مسرح (أبو نظارة) ولم يكن غريباً أن يضيق بمسرحه الخديوى إسماعيل وتضيق به بطانته من رجال السوء، إنما العجيب الغريب حقاً أن يرضى الخديوى عن وجود هذا المسرح سنتين كاملتين..

الأستاذ الأديب

كان إغلاق مسرح يعقوب بن صنوع مفرقاً الطريق في سياسته إزاء إسماعيل، فإن إغلاق المسرح بأمر الخديو أفقد المترجم له النخبة الواعية من أنصاره القريبين من القصر، ولم يقف اضطهاده عند حد، فقد أغلقت دونه أبواب الوظائف العامة وتعقبه المسؤولون في الصحف القليلة التي كانت تصدر إذ ذاك، وأشهروا عليه حرباص عواناً حالت بينه وبين الكتابة فيها ، غير أن يعقوبا صمد للمحنة فلم يتطرق اليأس إلى قلبه، وإتجه إلى نشاط ثقافي وطني يلائم ذوقه وحسه، فأسس جمعيتين علميتين أدبيتين ، سميت الأولى (محفل التقدم) وسميت الثانية (محفل محبى العلم) وانتخب لهما رئيساً، وهما جمعيتان تعتبران في رأى البعض نواة للحزب الوطنى القديم.

وكان أبو نظارة، وزملاؤه من أعضاء الجمعيتين المبرزين يقوما بإلقاء المحاضرات عن تقدم الآداب والعلوم في أوروبا، وكان يحضر اجتماعاتهم ومحاضراتهم المسلمون والنصارى واليهود، وبذلك خفت حدة العصبية الدينية، وأنهت الجمعيتان الفكرة السائدة لدى الأوروبيين من أن المصريين إذا اجتمعوا في ندوة أو اختلفوا إلى ناد كان التعصب رائدهم وكراهية الأجانب ديدنهم، فقد كان شيوخ الأزهر وأعلام الدينين الآخرين يساهمون

فيما يلقى من محاضرات وخطب، وكان المتحدثون جميعاً يدعون للحكمة والإخاء بين الشعوب دون تمييز عنصري أو ديني، وكانت الصحف المحلية تحتفل بنشر أخبار الجمعيتين مفصلة، الأمر الذي مكن لهما في نفوس الكثيرين حتى أقبل عليهما طلبة الأزهر وكبار ضباط الجيش المصري ليغترفوا من منهلهما مبادئ الحرية الأوروبية عامةً والفرنسية خاصةً .

ويحدثنا أبو نظارة عن المتاعب التى صادفته في هاتين الجمعيتين ودور الإنجليز في القضاء عليهما فيقول "وكان تاريخ فرنسا وآدابها من الموضوعات الرئيسية لمحاضراتي مما ضايق الإنجليز الذين كانوا يريدون أن ادعو لنفوذهم وأشجعه بين أبناء وطنى. وقد انتقموا منى.. ونجحوا بوسائلهم الوضعية وبدسائسهم الرخيصة في أن يلقوا في روع الخديوى إسماعيل أن هاتين الجمعيتين أنما هما مركزان للثورة، فما كان منه إلا أن منع التلاميذ والطلبة والعلماء من حضور اجتماعاتنا، واضطرت الجمعيتان إلى إغلاق أبوابهما" وهكذا كبت إسماعيل المتنفس الثاني لابن صنوع في سنة ١٨٧٤.

قضى على المتنفس الأول وهو مسرحه الذي كان يعبر على خشبته عن لواعج نفسه، وقضى على الجمعيتين المذكورتين اللتين كان يختلف إليهما كثيرون من الساخطين المتبرمين، وظن إسماعيل أنه قد قضى على كل ناد للأحرار، وأنه تغلب على المعارضة أفرادا وجماعات، سواء عن "سوء هضم القهوة" للأفراد! أو عن طريق إغلاق منتديات العلم والأدب، وكان خصومه يخرجون من بيوتهم فلا يعودون، ولا يدرى أحد ما لهم طال الزمن

أو قصر. وكان الناس إذا تحدثوا برأى جديد أو نقدوا فكرة من أفكار الحاشية الطائشة نالهم من غضب الخديوى الشئ الكثير، وفي مقدمة ما نال معارضي إسماعيل مصادرة أملاكهم. ولم يسلمْ منهم حتى عمه حليم الذي صادر أملاكه ونفاه. وجعله بذلك قبلة الأحرار من المصريين..

ولم يمنعْ الخوف أو الذعر والهلع عامة المصريين من التحدث عن الفساد الذي استشرى في البلاد، فكانوا يتسقطون الأخبار السياسية والاقتصادية من الأجانب المقيمين أو الوافدين. ويقبل بعضهم على قراءة تلك الأخبار في صحف الفرنجة أو برقيات وكالات الأنباء وقد أصدر إسماعيل- لعلاج ذلك الموقف- أمراً بمنع طبع البرقيات التي تأتى من أوروبا وتترجم إلى اللغة العربية، ومع ذلك كله فإن جماعة من الأحرار قد أخذوا على عاتقهم أعداداً ما تضمنته البرقيات وغيرها من مقالات الصحف الأجنبية الوافدة وترجمتها إلى العربية ونسخها ثم توزيعها على أوسع مدى مستطاع، هذا إلى أن أنصار الحزب الوطني من الرعيل الأول عاودوا الاجتماعات سراً لتدارس الموقف وبث الدعايات المختلفة ضد الخديوى وبطانته .

مضى أبو نظارة مساهماً في ذلك كله ، عائلاً لأمه وشقيقته ، محتملاً مصاعب الحياة واضطهاد المسئولين ، لابنى عن الخطابة والكتابة كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً حتى هاجت أفعاله وأقواله غضب إسماعيل فقال: "أن هذا المولبير المعتوه بخطبه وأشعاره يفتح أعين رعاياه أكثر مما يجب، وأن لم أقض عليه فلن أستطيع الحكم ولن يطيعنى أحد"..

ويبدو أن حدة الخلاف بين يعقوب بن صنوع والخديوى إسماعيل خفتْ قليلاً في سنة ١٨٧٥ أي بعد غلق الجمعيتين الأدبيتين العلميتين بسنة واحدة، وكانت هناك قلة في الحاشية ترجو أن تستقيم الأمور للقصر، ولا يتمادى الأمير في خصوماته لأهل الرأى وزعماء الفكر في مصر، وكان على رأس تلك القلة أديب هو" أحمد خيري باشا "مكتوبجي الحضرة الخديوية الفخيمة" وهو من الرجال الممتازين المحيطين "بولى النعم" إسماعيل ، وتربطه بكثير من الأحرار صلات مصدرها الإعجاب المتبادل بالآراء الجديدة التي شغلت البلاد في ذلك الوقت ، وقد عرفه الناس منذ أشرف على تحرير الوقائع المصرية في سنة ١٨٦٥ فقد كان توجيهه لها دليلاً مادياً على تفوق الرجل واعتدال مزاجه وبعد نظره في جليل الأمور..

إستطاع خيري باشا– وكان في تلك السنة كبيراً لأمناء إسماعيل– أن يقنع الخديوى بأن يعقوبا مواطناً شريفاً جديراً بتقدير الوطن ، وأنه رجع الصدى للنهضة الشاملة التي خلقها حكمه الزاهر، وأنه قام بثقة ولى الأمر، وأصغى إسماعيل إلى كبير أمنائه وشرط لعطفه على المترجم له أن يعتدل في كتاباته وخطبه ، وخاصة تلك الخطب التي كان يلقيها في المحافل الماسونية العربية التي ساهم يعقوب في تأسيسها منذ سنة ١٨٦٥، ووعد خيري أن ينفذ شروط إسماعيل مقابل الرضا على أبي نظارة وعمل على تحقيق هذا الرجاء بطرق عملية واضحة تقرب يعقوبا إلى المسئولين وتعينه على الحياة .

ووقع خيري باشا (المعاهدة) دون علم يعقوب! ولم ينكرْ ابن صنوع أنه رضى ما انتهى إليه أمر الوثيقة الشفوية بين الخديو وصديقه الحميم ، ويؤكد ذلك بفقرات مما كتبه عن تاريخه بقوله "ومنذ ذلك اليوم أخذت أقضى سهراتي في قصر عابدين مقر الخديوية ، فتعرفت بجميع وزراء إسماعيل، وقد كلفني معظمهم بتعليم أولادهم الفرنسية والإنجليزية، وهكذا أعدت ابتداء من ذلك التاريخ إلى ما كنت عليه من قبل، أى شاعر البلاط، وكنت أبعث بشعري في مناسبات الأفراح وأعياد الميلاد".

صورة أحمد خيري باشا

وعاد يعقوب بن صنوع إلى ما كان عليه من قبل ، مادحاً للبيت المالك ، مسجلاً مديحه في أشعار بعث بها في المناسبات المختلفة ، غير أنه كان في هذه العودة دارساً باحثاً يتسقط الحوادث والأخبار ويستوضح مغالق السياسة التي انتهجها إسماعيل لشئون الداخل والخارج ، منتوياً الشرحين يحين وقته ، فكانت معاهدته التي أقرها بالنيابة عنه خيري باشا معاهدة علي دغل، ويروى أبو نظارة نواياه في قوله "فقد كنت أشاهد عن كتب جميع جرائم إسماعيل، وأن عشت فلسوف أنشر أفعاله الوحشية التى ستر تعد لهولها فرائض العالم أجمع".

ومضى يعقوب بن صنوع قريباً من القصر وعيونه ، يدرس كل ما يدور حوله من خفايا حتى وجد انحراف الخديو انحرافاً ظاهراً، فقد تأكد منذ سنة ١٨٧٧ أن إسماعيل كان يلقى في روع الشعب عن طريق عملائه في الصحف وأعوانه في الريف أن الشعب عن طريق عملائه في الصحف

وأعوانه في الريف أن الضرائب المجحفة التي كان يفرضها على الفلاحين ، إنما كان يضطر إليها ليتمكن من أن يسدد المبالغ الضخمة للأوروبيين، وهي المبالغ التي كان يحكم عليها بدفعها إثر محاكمات ظالمة ، وكان أبو نظارة– كما رأينا في تاريخه الطويل– يؤثر ود الأجانب ويرجو ألا تسوء العلاقة بينهم وبين مواطنيه .

ولا أريد أن أحكم على (أبو نظارة) حكماً جائراً في نظره إلى هذا الأمر، فأعيب ميوله نحو التخفيف من ضيق الشعب بالأوروبيين، فقد يكون الرجل مؤمناً بأن هذا الضيق لن يؤتى ثمرة يرجى من ورائها خير لوطنه، كذلك لا أعيب عليه أبداً تبرمه بسياسة الخديوى المالية ، فقد كانت سياسة جديرة بالحملة عليها وتبصير الشعب بسوء المصير فيها ، وهكذا مضى الكاتب معلناً تبرمه بإسماعيل وثورته عليه ثورة كانت عدتها مقالات نشرت له لم نعثرْ عليها ولم يشر هو إلى مكانها بين صحف الجيل ، وإنما يؤكد المترجم له أنه هاجم ولى الأمر بحملة كتابية كلامية واسعة النطاق "لأنه كان يبذر في قلوبهم كراهية الأوروبيين" فيبعث في صدورهم نار التعصب التي كدت أنا وأصدقائي أعضاء الحزب الوطني أن نطفى جذوتها.

ويذكر أبو نظارة أنه استرسل في خصومته لإسماعيل فذهب إلى المحافل يخطب ناقداً سياسته المالية وإسرافه في فرض الضرائب، ويحكى أنه اختلف إلى معظم صحف لعصر فنشر مقالات كثيرة في هذا الموضوع، وحذر مواطنيه إذا خطب أو كتب من فكرة التعصب التي كان يوحى بها الخديوى عن طريق عملائه وأدواته الرسمية في المدن والريف ، وترتب على

موقف يعقوب هذا أن خسر عطف إسماعيل مرة أخرى ، حتى أن أبواب المحافل والصحف أغلقت دونه ، وهددتْ بالعصف والتعطيل أن أعطتْ فرصة للكتاب الناقد بالخطابة أو التحرير، ويروى لنا أبو نظارة أن إسماعيل انتقم منه انتقاماً مادياً في الظروف العصيبة التي كان يمر بها المترجم له ، فقد كلفه في سنة ١٨٧٤ بالسفر إلى أوروبا ، وقام بالرحلة تلبية لأمره، ولم يفصحْ الكاتب عن الأسباب التي دفعتْ إلى هذا التكليف ، ولا القصد منه ، وإنما يذكر أنه أدى المهمة على خير ما تؤدى المهمات الشبه رسمية، وأنه حين عاد إلى مصر عكف على كتابة تقرير مفصل متضمناً أشياءً كثيرةً لم يشرْ إليها أبو نظارة وهو يروى تاريخه ، ويبدو أن إسماعيل احتفظ بصورة التقرير عدة سنوات، فإذا غضب على صاحبه أبي عليه نشره في الصحف بل هدد الصحف بالإغلاق أن حاولت ذلك، ولم يقف الأمر عند حد منع نشر التقرير بل أن الخديوى أعدم المخطوط بحجة أنه تقرير ثورى ورفض أن يدفع تكاليف الرحلة وهي ثمانية آلاف فرنك..

كان يعقوب يجتاز في تلك الفترة أزمةً ماليةً حادةً ، وزاد من أزمته أن رفض الخديو دفع تكاليف مهمته، وغاظه أن يرى إسماعيل يبسط يد كل البسط لكثيرين من الصحفيين المصريين والأجانب ويقبضها دونه ، وكانت تلك الأزمة من العوامل التي دفعت بالمترجم له إلى شن الحملة على الأمير بعنف ودون هوادة ، وإلتمس لها ألف سبيل لينتقم لنفسه ، وينتقم أيضاً– كما يقول– للشعب الذي راضه إسماعيل على الذل وأخذ يضطهده بفرض الضرائب متعللاً بمطالب الأجانب وأحكام محاكمهم .

لم يقفْ نشاط يعقوب لحظة في الحملة على إسماعيل ، بل قام هو مقام الصحف برواية كثير من فضائحه في المجتمعات المتباينة التي كان يختلف إليها ، وأحس خطر تلك الحملة شريف باشا وكان ناظر الخارجية الخديوى وممن يرون في يعقوب بن صنوع الرأى الحسن ، وعلم الباشا أن الحملة التي يقوم بها المترجم له قد تركت أثراً كبيراً في نفوس عامة الناس وخاصتهم ، فقد كان يعقوب معروفاً للشعب جميعاً ، وهو راوية يحسن الحديث في ندوة العلماء كما يحسنه في قهوات أبناء البلد ، فأشار شريف على الخديوى بأن يصحح الوضع ويلتمس لهذا التصحيح وسيلة ترضى ابن صنوع فأجابه الخديوى قائلاً "أن لم يسكت هذا المغرور فأنى سأعرف كيف أسكته، وأن ضايقنى أكثر مما ينبغى فأنى سأسحقه بين أصابعي كما يُسحق البرغوث!" وقد نقل لنا هذه الرواية أبو نظارة في تاريخه ، وسجلها حين قصها عليه شريف باشا قبل أن يمضى إلى ربه بفترة قليلة .

ولما وجد أبو نظارة أن الصحف المصرية قد أوصدت أبوابها دونه ، قرر أن ينشئ هو الصحف على نفقته ويتولى القضايا التي كان يريد أن يتولاها بالعرض والتفصيل في الصحف المصرية ، واستند في الجولة الجديدة إلى القنصلية الإيطالية فنال حمايتها كما كان يصنع كثير من أحرار الصحفيين، وبدأ نشاطه بإصدار صحيفة خزلية باللغة الفرنسية سماها (البعوضه) ثم أنشأ صحيفة أخرى باللغة الفرنسية سماها (النظارة) ، ثم أسس بعد ذلك صحيفة أصدرها بثمانى لغات هي (الثرثار المصري) وكانت هذه الصحيفة من أوسع صحف هذا العصر انتشاراً ولقيت رواجاً في جميع الأوساط حتى تنبهت لها الحكومة فأصرت على أغلاقها .

وفجأة وجد يعقوب صنوع نفسه من غير قلم أو قرطاس ، وإحتبست في صدره الأفكار والآراء ، وعز عليه أن يعبر عن أغراضه بأية وسيلة من الوسائل ، فرأى أصدقاؤه القريبون من القصر، أو الذين لهم حظوة فيه أن ينصحوا له بأن يخفف من حدة هذه الخصومة ، بل طالبوه بأن يغير سياسته إزاء الخديوى حتى يستطيع أن يعيش في فلك الأمير كما يجرى غيره من كبار الناس، وإستمع أبو نظارة إلى نصحهم "وإعتكف شهرين مظهراً مدمه "لولى النعم" على ما بدر منه ، وكان ذلك وسيلته الوحيدة لرضاء إسماعيل ، هذا الرضاء الذي أذن له أن يعيش ، وأن تفسح له الدنيا مكانها ، وأن يحتل في تاريخ الصحافة المصرية أعز مكان ، وأن يكون عالماً من أعلام النخبة المنتقاة من المصريين ، وأن يكون خصم البيت المالك إذا أخطأ وصديقه إذا أصاب وأن يحيا لكفاح الاستعمار الانجليزي في مصر والسودان ، وأن يعلن عن مصر بأحسن ما يعلن المواطن الحر الشريف عن بلاده .

هذا الرضاء قد أذن له بأن يصدر مجلة (أبو نظارة) ليحيا فيها يعقوب ما بقى الكون وبقى في الكون إنسان.

أبو نظارة في مصر

صدر العدد الأول من مجلة أبو نظارة في ٢١ ربيع أول سنة ١٢٩٥هـ بمدينة القاهرة ، وكان اسمها (أبو نظارة زرقاء) وتحت العنوان كتبت عبارة (جريدة مسليات ومضحكات) وليس في العالم كله فيما نعلم مكتبة عامة أو خاصة تحتفظ بالعدد الأول من (أبو نظارة زرقاء) ولا بالأعداد التالية التي صدرت في مصر وعددها خمسة عشر عدداً ،

وقد حصلتْ على هذه الأعداد في مخطوط كتبه يعقوب صنوع صورة مطابقة كل المطابقة لما صدرت به تلك الأعداد في عهد إسماعيل ولكنها حرقت بأمر الطاغية ولم يحتفظ أحد بأى عدد منها..

ويشير يعقوب صنوع إلى الظروف التى أوحت باسم مجلته ، فيذكر أنه اجتمع طويلاً بالسيد جمال الدين الافغانى والأستاذ الإمام الشيخ مُحَّمد عبده لاختيار الاسم المناسب ، وبالرغم من هذا الاجتماع الطويل فإنه ترك بيت الأفغانى صفراً من أى اسم فأحاط به المكاريه (أصحاب الحمير) وكان كل واحد منهم يريد أن يختار يعقوب حماره ويقول "ده يا أبو نظارة" فأعجبه النداء وقال لقد وجدت اسم الصحيفة.. وقد أعجب بهذا الاسم كثيرون من أصدقاء يعقوب ، فهو ينم عن معنى فان (أبا نظارة) يومى إلى أنه رجل يرى من بعيد ، وفي ذلك ما يعنى أنه رجل ملهم لا تفوته فائتة.

وقياساً على ما كان يتبعه الصحفيون في ذلك العهد ، قدم يعقوب لصحيفته بافتتاحية تضمنت رسالتها وأهدافها ، وقد جاءت في أسلوب ركيك وعبارة لعلها أضعف ما كتبه يعقوب أسلوباً وعبارة سواء في مصر أو في أوروبا ، غير أن إهمال الإشارة إلى افتتاحية العدد الأول لم يكن جائزاً ونحن نؤرخ لأقدم الصحف الهزلية في الشرق كله ، ونؤرخ لها من مجموعة خطية قد تضيع على مدى الزمن وتختفى فيها ذكريات رائعة من تاريخ الصحافة المصرية..

لقد تحدث أبو نظارة كثيراً عن نفسه في هذه الافتتاحية ، وحدثنا عن أهدافها بما لا يخرج عما جاء في أعدادها التالية وهو لن يتركنا في عدد من أعداد صحفة ألا ويذكر لنا شيئاً من ذكرياته ومشاهداته ، وسيمضى في ذلك نحو ثلاثين عاماً ، فإذا فرغ من ذلك شغلنا بمحاوراته الفكاهية التي جرت بينه وبين "أبو خليل" أو "أبو الشكر" أو "الصدفجي" أو غير ذلك من الأسماء، وأحيانا يختفى أبو نظارة من هذه المحاورات ويتركها على لسان آخر، وكثيراً ما وجدنا "المستر بول" يحاور مصرياً "كأبى الشكر" في موضوعات شغلت معظم الخمسة عشر عدداً التي صدرت في مصر.

ثم كان يقدم في تلك الأعداد فصولاً تمثيلية فيها نقد لحياتنا الاجتماعية ، ونقد لحياتنا السياسية ، وأن كان في عرض هذا النقد الأخير متحرجاً أشد التحرج ، حريصاً أشد الحرص على ألا يسيئ للخديوى أو بطانته أو حكومته ، ومن هذه الفصول (القرداتي– لعبة تياترية حصلت في

أيام الغز سنة ١٢٠٤) ومن أشخاص هذه "اللعبة التياترية" السنجق دبوس أغلو، وسعد، وبقلاوة أغا، وشيخ الحارة.

ويريد يعقوب أن يصور بهذه المحاورات مدى الظلم والعبث بحياة الأفراد والجماعات في عهد إسماعيل وأن أرجعها إلى تاريخ سابق قديم ، ويريد أن يعطى صورة عن الحكومة التي تسيطر على شئون الناس ، وهذه اللعبة التياترية التي ضربنا بها مثلاً تصور في منظرها الثاني ديوان السنجق دبوس أوغلو، وفي حضرته الأشخاص الآخرون الذين أشرنا إليهم في الفقرة السابقة ، أن موضوع القضية يعنى أن "سعدا" هذا سرق حمار المعاون ليدفع الضريبة ، وأن المعاون نفسه هو الذي حثه على السرقة والحبس وهو يقصد من ذلك تصوير الحياة المصرية بما فيها من مفاسد ، مفاسد أدوات الحكومة التي تطالب بالضريبة ولو عن طريق السرقة وهو- حتى ذلك الحديث- لم يهاجم رأس الحكومة بل هاجم أدواتها فقط ، ومن الحق علينا أن نشنر هنا الفصل الثاني كاملاً حتى نعطى صورة طيبة لألوان هذه المحاورات "التياترية" وهي محاورات سيطرت على قلم يعقوب بن صنوع في معظم صحفه ، وفيها يعبر عن طبعه الغالب على حياته ، حياة الفتى الذي بدأ ممثلاً ، وكان يرجو أن يمضى في مهنة التمثيل ، فإذا أعجزته الظروف أجرى قلمه في صحفه على طريقته التمثيلية التي تفرد بها ، وعز على آخرين أن يجاروه فيها.

نحن في دياون السنجق دبوس أوغلو.

قال السنجق– كولوا (يعنى قولوا) أنتم ياشيخ (يا شيخ) الحارة، ماذا هصل في كضية همار (يعنى قضية حمار) بقلاوة أغا. لكن قولوا كلاما دوجريا (يعنى دوغريا) وإلا كطعتُ رأسك .

قال شيخ الحارة– يا سيد سناجق الدنيا– يا أمير المؤمنين– يا بطل– يا أسد– يا سيد الشجعان..

قال سعد– ده السنجق ما يحبش الكلام ده– أحكى له الحكاية بكلمتين وإلا خلى المعاون يحكى.

قال السنجق– اهكى أنت يا فرعون.

قال سعد– أنا مااسميش فرعون وحياتك. أنا اسمى سعد إنما من يوم ما حكمت بلادنا أنتم ياغز، السعد شافنا وهرب.

قال السنجق– جلاد جال يا جلاد.

قال سعد– الجلاد ده صنعته ايه.

قال بقلاوه أغا– أكطعتُ رأس بتاع أنت.

قال سعد– حليمتلو وشفقتلو (يعن حلمك وشفقتك) يا جندى خليني أولاً أحكى لك قصتي وبعد أأمر جلادتلو أفندى ينزع رأساتلو من كتافتلو (يعنى من كتفى).

(السنجق يضحك ضحكة رطل)!!.

طيب يا قرادتجي اهكي كصة بتاع أنتم.

(سعد يقول في نفسه)– والله الرطان نفع، الكلمتين التركي رطبوا خاطر السنجق.

قال شيخ الحارة– يالله يا سعد يا حبيبي– كلم سعادة السنجق.

قال سعد– بقى المعاون ده اللى قدامك يا سيدي، ده ثقيلتلو قوى ورزالتلو موش زى سعد أفندى خفيفتلو ولطافتلو، لاده بيراضام جاته أضامه– قال لي روح اسرق وهات الفردة وإلا يا فلاح وحيات رأس الأمير.. [1] مراده يقول أحبسك– بس هو ما يعرفش عربي. فخرجت أنا محتار في أمرى، وأولادي الحمار والقرد والكلب بيبكوا ورايا ، وكان شئ يحزن قلب الكافر يا سنجق ، إسأل شيخ الحارة ، فرفعت عينى لأبى خيمة زرقاء ، وقلت له– يارب العباد يا رحمن يا رحيم اشفق على عبدك وخلصه من يد الظالم ده ، فضربت بعينى وشفت حمارى الصغير بيبوس في حمار المعاون الحصاوى ، وما كنش لاجنبه لاسايس ولا خدام فركبته وبرطعت يا جندي على آخر سرعتلو وأولادي ورايا ، فقابلنا ابن الحلال ، وكلمة منه وكلمة منى بعتْ له الحمار بخمسة محابيب، فرجعت على المعاون حالاً وأنا فرحان وناولته واحد منهم وضربت الأربعة في شدقى.

قال السنجق– صحيح بوهكاية.

---

[1] هنا لفظ يمنعنا الحياء من ذكره.

قال شيخ الحارة– وحياة رأسك– صحيح– بعدما خرج سعد جاسايس المعاون يجرى وأخبرنا أن الحمار إنسرق في غيابه ولما رجع سعد ، بدون ما نسأله أخبرنا بما حصل.

قال سعد– المعاون أمرني بالسرقة فسرقت واعترفت بذنبي ومن قر بذنبه غفر الله له.

قال السنجق– جلاد جال كطع راس بقلاوه أغا.

قال سعد– واحشيها لوز وسكر.

قال السنجق– وأنت يا سعد خلى عند أنت الأربعة محبوب ، وخذ كمان عشرة من خزنة بتاع أحنا عليهم.

قال شيخ الحارة– آدى الانصاف وإلا بلاش– ربنا يطول عمرك يا أميرنا..

قال سعد– ايدك على دول يا سنجق لما ألطعها، واجمعنا على العشرة محابيب خلينا نروح نفنتظ الليلة ونشد ، وأنت يا بقلاوة أغا دود الأرض رايح ياكل منك بقلاوه وبلوظه– واخوانك المعاونين لما يسمعوا بآخرتك يفتحوا أعينهم تما تناشر ولا يظلموش العالم.

هذه صورة من محاورات (أبو نظارة زرقاء) تعطى فكرة عن الحياة العامة التي أراد أن يفضحها بطرقه الخاصة ، وتعطى أيضاً فكرة عن حياة المواطنين إذا أصابهم الرخاء ، وحسبنا شرحا لذلك قول سعد حين تناول

المحابيب العشرة من السنجق ، فقد راح (يفنتظ ويشد) أى راح إلى العبث الصارخ ومن بينه تناول الحشيش ، وهو علة المواطنين عمالاً وزراعاً من قديم الزمان.

ثم يمضى يعقوب بعد ذلك في إعداده التالية حاملاً على الفساد في (حكم قراقوش– لعبة تياترية حصلت في قبلى في أيام الغز سنة ١٢٠١هـ) وأشخاصها "السنجق ظالم أوغلو وطرطور أغا القواص وأبو نفوسه شيخ البلد" وهو يبين لنا قسوة الضرائب المفروضة على الفلاحين، حيث يطلب السنجق من أبى نفوسه شيخ البلد "العوايد والمال والفردة والإعانة والماكيلة والصخرة" (يقصد السخرة) فيرد أبو نفوسة قائلاً: "هو أنتو خليتو في البيربكرة وألا سلبة والتور وحياة السنجق بعناه بربع الثمن– بجا أجيب من الهوا المحابيب والعوايد والمجابلة والدواهى الحرة دى كلها اللى خربتنا وحفلت ديارنا وفضحتنا على آخر الزمن" ثم يستمر الحوار على هذا الغرار عدة صفحات تروى مظالم العهد– عهد إسماعيل– وإن كان الكاتب أخفاها تحت حجاب التاريخ القديم.

وتتطور سياسة الصحيفة رويداً رويداً ، فقد كان يعقوب إلى نهاية العدد الخامس ينقد حاضره بنقد ماضيه ، ويحكى ما يراه على لسان أشخاص مضى على زمانهم أكثر من أربعة أجيال وكان يصب النقد على أدوات الحكومة من موظفيها الأتراك ، وخاصةً أولئك الذين كانوا يقومون بتحصيل الضرائب ، ولم يسفرْ قطْ في أعداد الصحيفة الأولى عن خصومته لإسماعيل ، ويناقض ما رأيناه في مخطوط الأعداد ما ذكره عن نفسه في

رواية تاريخه في مصر، فقد قال "وفي العدد الرابع من صحيفتى أخذت أمدح التعليم الذي يبدد نوره ظلمات الجهل حيث يحرمه الطغاة على شعوبهم ليمعنوا في استغلالهم- وفي الأعداد التالية أخذت أبين فضائل الحرية التي هي ينبوع السلام والسعادة والنجاح ، وأحارب التعصب الديني بسلاح الأخاء، وقد شجعنى نجاح صحيفتي المتزايده ، وقد بلغ توزيعها آلاف النسخ في حين لم تكن أوسع الصحف انتشاراً توزع في ذلك العهد أكثر من خمسمائة أو ستمائة نسخة ، فكشفت النقاب عن وجهى وهاجمت الخديو إسماعيل بشجاعة ، ذلك الحاكم الذي كان ينهب رعاياه بفرض الضرائب التي لإعداد لها ويقسم ظهورهم بالرسوم المجحفة.. وبينت حينئذ للمصريين أن الأوربيين عامةً والفرنسيين خاصةً هم أصدقاؤهم ، وأنهم يريدون أن يروهم سعداء ، وأن الدولة الغربية الوحيدة التي تطمع في مصر هي بريطانيا العظمى التي منذ بداية هذا القرن تنظر إلى بلادنا لأن احتلالها يضمن طريق الهند".

يذكر أبو نظارة أنه بدأ سياسته تلك منذ العدد الرابع من صحيفته ومن يتصفح ذلك العدد يجد أنه قد بالغ فيما سجله عن تاريخه في تلك الفترة ، فالعدد الرابع احتوى على محاورة بين (أبي خليل وأبي نظارة) واللعبة التياترية التي نشر ناظراً منها وهي الخاصة بسعد القرداتي ، ثم محاورة بين (الصدفجي وأبو نظارة) وليس في هذا كله مدح للتعليم وأن كانت فيه إيماءات إلى ألوان الظلم الذي يغشى حياة المصريين ، ثم بالغ أبو نظارة فزعم أنه كان يوزع منها عدة آلاف بينما يذكر في العدد السادس وهو يحاور (أبا خليل) أنه يطبع نحو ألفى نسخة فقط قائلاً رداً

على سؤال أبى خليل عن حاله "ماشى زى الحلاوة. ينطبع منه ييجى ألفين نسخة كل نمرة– دى الناس راغبة له قوى ولو أنه حاجة هلس!".

ولم تكن أبو نظارة زرقاء شيئاً "هلسا" كما يتواضح صاحبها فيذكر ذلك في أكثر من موضع ، بلْ كانت شيئاً جديداً كل الجدية في حياة المصريين وصحافتهم ، وكانت لسانا يعبر عن عواطفهم ويقص مآسى العهد بطريقة قريبة التناول سريعة الهضم ، وقد أخذت رسالتها تنضج تماماً منذ عددها السادس حيث أعلن المحرر عن ضيق الأمراء بصحيفته ولا أقول الخديوى إسماعيل ، وإن كانت المعانى التي نشرها تحمل في طياتها السخرية به ، استمع إلى المحاورة بين (أبو خليل وأبو نظارة) عن مقام المجلة وخطرها وما تركته في نفوس البعض ، قال أبو خليل: "هلس أية يا سيدي، ده عين الجد ، والحكومة لازم تكون مبسوطة منه ، بيورى للأهالى الظلم اللى كان حاصل في أيام الغز والعدل والانصاف اللى حاصل في عصر ملك مصرنا الحليم الشفوق اللى بيحب الرعايا كأودلاده العزاز كما ترى" فيرد أبو نظارة بقوله "إنما بعض الأمراء ما همش فاهمين الأمر ده– ربنا يظهر الحق".

ومنذ طلع العدد السادس على قرائه، والصحيفة تعبر تعبيراً سليماً عن الساخطين البرمين بالحكم وأساليبه ، الناعين على الانجليز تصرفاهم وتدخلهم في شئون البلاد تدخلاً يسيئ إلى كرامتها وحريتها وعدالتها واستقلالها ، وهو حين يتحدث عن الظلم والظلمة فكأنه يرسم صورة ممتعة للخديوى إسماعيل وحكومته ، ومع ذلك يبعد الظلمة عنه بقوله في آخر

كل محاورة "يارب العالمين احفظ لنا عزيز مصر لكونه يحب عبادك ويسمى في سعدهم".

ثم إنظر كيف يسجل يعقوب بن صنوع ما كان يجرى به الهمس من أن إسماعيل إذا غضب على صاحب أو صديق دعاه إلى قصره وقدم إليه فنجاناً مخلوطاً بالسم فيخر صريعاً عند عودته إلى بيته ، ويعز على أسرته أن تعرف أسباب ذلك الموت المفاجئ.

قال أبو الشكر– يا مرحبا بك ياأبو نظارة.

قال أبو العنين– تفضل إقعد يا عم وانجلى.

قال خلاط– تريد تشرب ايه.

قال أبو الشكر– أبو نظارة قتيل البيرة.

قال أبو العنين– لا الراجل يحب القهوة.

قال أبو ناظرة– لا ياخويا– القهوة ما أحبهاش لأنها مخطرة في الأيام دى واللى بيشرب منها فنجان بيبرم.

وأذن فقد بدأ أبو نظارة يتجاوز حدوده ، وهى الحدود التي ما كان لصحفى أن يتجاوزها وألا تعرض للشر وعرض صحيفته للخطر، والحديث في مثل موضوع القهوة ، وهي من الشائعات التي تقرب من الحقائق في عصر إسماعيل ، أمر خطير ، وخاصة إذا سجل في صحيفة سيارة يأنس إليها العامة قبل الخاصة ، والشائعات حقائق عند الإنسان العادى إذا

طبعت في كتاب أو مقال، لأن المطبوع له أثره في النفوس في كل زمان ومكان..

لم يكنْ خطر مجلة (أبو نظارة زرقاء) كامنا في فكاهاتها ومحاوراتها والجديد الذي احتوت عليه أو الغريب الذي لم تشهد صحافة مصر والشرق العربي ، بل كان خطرها في أسلوبها ، ولا أعنى الأسلوب العلمي وأن كان هو الأسلوب الغالب على صفحاتها جميعاً ، بل أسلوبها الذي تضمن عدة لغات ولهجات ، فأنت تقرأ فيها لغة عربية سليمة أو عامية لطيفة ، كما تقرأ لغة تركية في بعض ألفاظ وجمل يعرفها المعاصرون وتقرأ أحياناً اللهجة الشامية وحوارها الممتع ، كما نجد أحياناً أخرى عبارات فرنجية تعبر عن مقتضى الحال تعبيراً صادقاً ، فهى من حيث وسائل التأثير متعددة الجوانب في تلك اللغات واللهجات التي يستطيع أن يقرأها المصريون والعرب والترك ، هذا إلى أن المحرر تمكن من عرض النكتة أو الملاحظة وجعل في خدمته العبارة العامية أو العربية أو الشامية ، إلى آخر ما كان يقدمه لنا من نكات مأثورة عن الفرنجة أو العرب .

ومجمل القول أن يعقوب بن صنوع قد بدأ ينزل إلى ميدان السياسة سافراً بعد عدة أعداد من مجلته ، ولم يتورعْ عن مهاجمة الوزراء والأمراء والخديوى بأسلوب ساخر فيه إلتواء ، فرأيناه يحدثنا في عنف وشدة عن اضطهاد كاستلى "اللى لولا هو من تحت وربنا من فوق ما كنت فلحت في جريدتي" وكاستلى هذا– كما يحدثنا تاريخ الصحافة المصرية– صحفى أجنبي صاحب مطبعة كان في خدمة أكثر من جريدة ومجلة ، ولقى في عهد

إسماعيل شيئاً من الاضطهاد الملحوظ ، مع أنه يكاد يكون مواطناً مصرياً إذ أمضى في مصر نحو خمسين عاماً في هذا الميدان ، وفي هذه الفقرة التي جاء فيها ذكر كاستلى حمل أبو نظارة حملة شعواء على الحكومة بمناسبة النظر في الدين ومشاكله وموقف "الديانة" من حاجات البلاد حتى قيل أن الصحيفة قد "أمر بقفلها" كما سجل المحرر ذلك عقب الإشاعة التي انطلقت بهذا في كل مكان.

وقد مضى يعقوب في نقد الحياة السياسية وخاصة في محاوراته المختلفة ، ولم يتعرضْ في أعداد الصحيفة للخديوى إلا بالثناء في غير موجب للثناء! كأنه يسخر "بولى النعم" لأنه كمان يتعمد ذكره بالدعاء والتكريم في مواقف لا يمكن أن تصلح لتكريمه أو الدعاء له! غير أنه بدأ يهاجمه تحت اسم محجب هو "شيخ الحارة" يتمثل في شخصيته الظلم والجور، ويقول فيه على لسان (الحدق) كلاما يدعو للثورة "وساكتين عليه ليه ، اشتكوه وقدموا فيه عرض حالات لشيخ الثمن اللى هو أكبر منه ويقدر يعزله" وشيخ (الثمن) هنا هو الخليفة كما حدثتنا صحف يعقوب حين تحررت من الخوف والفزع وصدرت في باريس من غير رقيب.

وهكذا وضحت سياسة (أبو نظارة زرقاء) عند الحكومة المصرية ، فقد أصبح الأشخاص فيها- وإن كانت أسماؤهم محجبة- واضحة للمسئولين، فشيخ الحارة هو الخديوى ، وأبو الغالب هو الفلاح المصرى، وكريم حليم يقصد بها الأمير حليم عم الخديوى والسيد الحبيب القريب إلى قلب يعقوب وسائر المصريين ، وهكذا أطلق الأسماء والألقاب التي تخفى

تحتها كثيراً من المعانى المفزعة لحكومة مطلقة السلطان فضلاً عن تعرض الكاتب للسياسة الإنجليزية في مصر تعرضا جعل العلاقات المصرية الإنجليزية في خطر، وجاء العدد الأخير ينبئ عن وقف الصحيفة وصاحبها فقد أحس أبو نظارة بقسوة الحكومة واضطهادها له ، حتى أنه سجل هذا المعنى في رده على (أبو خليل) حين سأله عن صحة ما أشيع عن سفره للخارج فقال له "أعمل إية هنا. بس أسمع كلام بارد يغم القلب أديني ضحكت أخواني بخمستاشر نمرة وعشمى أنهم ما ينسونيش لكونى محب لهم وإلا "أفديهم بالروح".

وهكذا عبر يعقوب بن صنوع عن واقع حاله في تلك الكلمات القصار التي ذكرها في العدد الخامس عشر، وهي كلمات فيها من الصدق الشئ الكثير، فقد كانت مجلته صوتاً رقيقاً حيناً وصوتاً مدوياً حيناً آخر، كانت صوتا رقيقاً بما احتوت عليه من نكات وفكاهات وصور باسمه وأزجال لطيفة وبيان للحياة الاجتماعية بمباهجها ومفاتنها ، وكانت صوتاً مدوياً بما اشتملت عليه من رواية الحقائق السياسية المرة وعرض لمساوئ الحكم ومظالم الأمراء والموظفين ، وتبصير للمواطنين بحقوقهم ، وتشجيعهم على اللجوء للشكوى إن لم يستطيعوا الثورة على الظالمين..

نفى صنوع

لم ترض حكومة إسماعيل عن المعانى التي تميزت بها أعداد صحيفة يعقوب الأخيرة ، وهي الأعداد التي سفر فيها وأعلن رأيه بوضوح وجلاء ، وهو رأى جزع له الخديوى وبطانته ، وخافه المسئولون في حكومته ، فقرروا

إغلاق الصحيفة والتخلص من صاحبها بنفيه خارج البلاد.

ولكن.. كيف صرعت أبو نظارة؟ وكيف نفى الكاتب الكبير؟

لهذه الواقعة أكثر من وجه ، فالذى يقصه علينا التاريخ ، يبين أن يعقوب بن صنوع كان محتمياً بقنصلية إيطاليا ، وهو من تلاميذ المدرسة الإيطالية حيث تلقى في بعثته إليها دروسه الأولى في الفنون والموسيقى ، وكان محتمياً بتلك القنصلية ليستطيع إصدار صحيفته والتنفيس عن لواعج نفسه بما يكتب فيها من مقالات ومحاورات والتنفيس عن لواعج نفسه بما يكتب فيها من مقالات ومحاورات دون أن تعصف به سلطة من السلطات المصرية كما عصفت من قبل ومن بعد بكثير من أعلام الصحافة الأحرار الذين أبوا أن يحتموا بقنصلية من القنصليات ، ولم يكن أبو نظارة وحده الذي طرق باب هذه الحماية بل طرق هذا الباب غيره من زملائه الوطنيين ، ومن بينهم جماعة من المتطرفين ، إحتموا بقنصليات فرنسا وإيطاليا وروسيا وانجلترا وغيرها، يستوى في ذلك المصريون أو المتمصرون من أبناء الشام الذين وفدوا على البلاد واتخذوا من الصحافة حرفة لهم وصناعة.

وقد قيل أن الخديو تدخل عند قنصل إيطاليا وانتزع منه الموافقة على إغلاق الصحيفة وطرد صاحبها من مصر، ويقول بول دوبنيير وهو كاتب فرنسي، ومن جرى في فلكه من الكتاب الفرنجة الذين كتبوا عن المترجم له، أن (أبو نظارة) نصح له أصدقاؤه القريبون من السلطان بالسفر من مصر، كما نصحوه بأن يحترس من تناول القهوة الخديوية! فأجاب محذريه قائلاً بكل هدوء "لو انتظرت حتى أتذوق القهوة الخديوية لسبق

السيف العزل.. فيجب إذن أن أغادر البلاد" وهذه رواية صورت مآسى العصر وأشارت إلى الضيق الذي كان فيه كاتبنا ، وبينت الخطر المحدق به ، وأوضحت أن لصحفينا أصدقاء كانوا حريصين على حياته ويدخرونه لمستقبل الأيام.

وليعقوب في تاريخه الذي كتبه بنفسه حديث آخر، يصور اضطراب الحاكم والمحكوم ، إضطراب الحاكم من الرأى الحر والفكرة الجديدة ، وإضطراب المحكوم من وسائل القضاء على ذلك الرأى وتلك الفكرة ، فقد عمد إسماعيل إلى قتل خصومه بشتى الطرق وفي ذلك يحكى يعقوب شيئاً يشبه القصص فيقول ".. وكان أن لفت قنصل إنجلترا نظر الخديو إسماعيل رحمه الله إلى تلك المقالات المشبعة بروح الود نحو فرنسا والتى تفيض بكراهية بريطانيا ، وأقنعه بالتخلص منى بأية طريقة من الطرق وامتثل إسماعيل لنصح ممثل انجلترا الخائنة"..

ثم يبين المترجم له كيف امتثل إسماعيل لهذا الممثل الدبلوماسي وأنه كان امتثالاً على طريقة الخديوى التي اتبعها في التخلص من خصومه! فقد كان النصح يتجاوب مع شعور الأمير ويتلاءم مع طبيعته ، أما الطريقة فقد إختص بها إسماعيل بين أقرانه ، ويذكر أبو نظارة وسيلة الخديوى وطريقته بقوله "وبينما كنت أتنزه في شبرا مساء أحد أيام مايو سنة ١٨٧٨ خارج مدينة القاهرة بصحبة عجوز فرنسي اسمه الكابيتين جيرار، إنقض على أحد زبانية الخديوى وطعننى بسكين ، فسقطت على الأرض بينما جرى الكابيتين جيرار خلف الطاعن وهو ينادى رجال الشرطة ليقبضوا

عليه ، بيد أن رجال الشرطة تركوه يهرب حسب التعليمات ، ولحسن الحظ أصاب السكين الجزء الفولاذى من حزامي ولم أصب ألا بخدش نزف منه الدم".

ويؤكد يعقوب هذه الحقائق بقوله بعد ذلك "ولما فشلت تلك المحاولة تلتها أخرى ، فبينما كنت أقرع باب منزلي حوالي منتصف الليل دوى صوت طلق نارى ومرتْ الرصاصة على بعد سنتيمتر واحد من رأسى. أن الثقب الكبير الذي تركته في الباب ما زال موجوداً . وكان الجمهور حسب المعتقدات الشرقية ، يقول أنى أحمل حجاباً يحميني من الأسلحة" وهكذا فشلت محاولة قتل المترجم له للمرة الثانية ، ورأى إسماعيل أن يسلك طريقاً آخر، ويعالج الأمر علاجاً يختلف عن الوسيلة الأولى قبل أن يأمر بإلغاء صحيفة (أبو نظارة زرقاء) وهي الصحيفة التي سببت كما يقول يعقوب "عدة فتن في الصعيد ضد مبعوثيه الدين كانوا يدفعون السكان قهراً إلى بيع مواشيهم وأراضيهم ليسددوا المبالغ المطالبين بدفعها ظلماً" فأرسل في الليلة السابقة على إلغاء الصحيفة كبير أمنائه خيري باشا ، وقد جاء إلى ابن صنوع في ساعة متأخرة من الليل متخفياً وكان يعقوب نائماً فأيقظوه للقاء رسول الأمير.

ويمضى يعقوب بن صنوع في رواية تاريخه الذي سجله بنفسه في أواخر القرن الماضي، مبيناً لنا الطريقة الأخرى التي اتبعها إسماعيل للقضاء على الصحفى الكبير "وقال لى ضيفى الكريم ، لقد جئت لأراك ياموليير– وكانوا ينادونى هكذا في ذلك الوقت– وأن ذكرت لي أسماء الوزراء الذين

أعطوك الأسرار التي نشرتها في العدد الأخير من صحيفتك ، أعطك بيدى أربعة آلاف جنيه. أنت تعلم أنى خير صديق لك ، ولن يعرف أحد ما حدث بيننا ، ويستمر صدور صحيفتك ، أما أن تماديت في عنادك ، فإن الخديوى بواسطة بوليسه السرى الذكى سيجد المذنبين، وانتقاماً منك فإن سموه سيقول أنك أنت الذي وشيت بهم فيذلك دون فائدة".

وساء يعقوبا هذا العرض الصغير من الرجل الخطير الذي له في نفسه مكانة الاعتبار والتقدير "فقمت حينئذ دون أن أفوه بكلمة وأوصلت خيري باشا إلى الباب وقلت له وأنا أودعه: قل لإسماعيل أن كان هو خائناً فأنا لست كذلك ، وأن كنوز العالم كلها لا تساوى ظل شرفى" ويروى أبو نظارة أن صديقه الحبيب إلى قلبه خيري باشا تأثر أشد التأثر فدمعت عيناه وضمه إلى صدره ثم قبله وقال "الحمد لله سيد الكون الذي وضع في طريقي رجلاً شريفاً ومواطناً صالحاً مثلك. أرجو أن يحذو أبناء مصر حذوك فيجعلوا الطاغية الذي يظلمهم يرتجف أمامهم" ثم اختفى خيري باشا في سرعة ملحوظة دون أن يترك فرصة للمترجم ليعبر له عن الأثر الطيب الذي تركته كلمات الباشا في نفسه .

وغضب إسماعيل غضباً شديداً لأنفة واحد من رعاياه ، فأمر بإلقاء القبض على بائعى (أبو نظارة زرقاء) ثم أشيع في العاصمة أن محرر الصحيفة وجد صريعاً في سريره.. ويمضى أبو نظارة في حكاية قصته قائلاً "ويبدو لي أن الخديوى أمر خيري باشا أن يحضر إلى مع أحد زبائنه ليقتلنى في حالة رفضى خيانة من وثقوا بي".

"وأعتقد أن خيري قال لسيده العظيم أنه وجدني محاطاً بعدد من الأصدقاء. وقد اضطرب الشعب لخبر موتى ، وخشى إسماعيل العاقبة فأمر بظهوري في المدينة لتهدئة الجماهير".

وكان للإشاعة التي أطلقت عن مقتل أبي نظارة في سريره أثرها الخطير في نفوس العامة والخاصة على السواء ، فقد كانت سمعة إسماعيل كقاتل وظالم وناهب تطبق الآفاق ، وكانت كل إشاعة عنه تلقى من يصدقها بين الناس وأن كانت مكذوبة جملةً وتفصيلاً ، غير أن هذه السمعة أثارت حفيظة الكثيرين ، وفي ذلك يقول يعقوب "وبعد ذلك ببضعة أيام طلب إلى عدد كبير من الضباط وهم من تلاميذي القدامى ، أن أسير على رأسهم وأن أهاجم قصر عابدين لإنقاذ مصر من خديويها القاتل. فقلت لهم أنكم بذلك تخدمون انجلترا ولها قطعتان حربيتان في زيارة ثغر الإسكندرية ولن تلبثَ أن تأمر جنودها بالنزول إلى البر ويندر أن يترك الإنجليز البلد الذي يحتلونه ، بدعوة إعادة النظام إلى ربوعه".

ويبين لنا أبو نظارة تفاصيل ما فعله الخديوى إسماعيل لطرده من مصر، والأسباب التي من أجلها لم يتمكن من قتله جهاراً وفي وضح النهار فيقول "ولما كنت في حماية الماسونية التي كان يخشاها الخديوى إسماعيل كثيراً ، وفي رعاية جميع القناصل الأوروبية الذين كانوا يتلقون على دروس اللغة العربية فإن مضطهدي– أي إسماعيل– لم يكن في استطاعته قتلى ، ولكن بوصفه خديوى مصر كان في مقدوره أن ينفيني ، ذلك ما فعله بعد أن أفقدني ، بغضبه على، كل تلاميذي، وقد ذهب إلى حد منعهم من

دفع ما عليهم لى ، فلم يكن ينتظرنى في وطني بعد ذلك سوى الفقر، أما في الخارج فقد يبتسم لي القدر ثانية ، وهكذا يمت وجهى شطر المنفى".

أن يعقوب بن صنوع يروى قصة نفيه في بساطة ووضوح ، ويميل بي الخاطر إلى تصديق كثير من تفاصيلها ، وأن كنت أعتقد أنه بالغ فيما بعد في وصف وداعه وحزن الشعب له ، وأجمل ما في هذه القصة الدقائق التي سجلها صاحبها ، فهو لا يعرض فيها قصته مع الخديوى وحده ، بل يمضى بنا إلى أشخاص آخرين ما كان يدور بخلدنا أن لهم به هذه الصلات الوثيقة ، فهو مثلاً يتحدث عن الشيخ البكرى ونصيبه في هذا الموضوع فيقول "وكان الشيخ البكري، وهو من السلالة النبوية ، يعطف علي عطفاً أبوياً، وقبل أن أغادر مسقط رأسى الذي شاهدت فيه سعادتى وتعاستى ، ذهبت لأقبل يد هذا القديس وأطلب بركته فقال لي: كل إنسان طيره– أى قدره– مربوط إلى عنقه عليك يا بنى أن تسير في الطريق الذي رسمه لك ولا تخف شيئاً أن الله رب العدالة والخير الذي دافعت به عن المؤمنين ، معرضاً نفسك للقتل ، سوف يحمى خطواتك أينما ذهبت" ثم يعلق أبو نظارة على كلمات الشيخ الوقور بقوله "وقد بعثت كلماته الودية وتمنياته الصادقة جذوة الأمل في نفسي، ولم أكن أعتقد أن مدة أبعادى سوف تكون طويلة".

ويحسن بنا ونحن نختم هذا الفصل عن سيرة يعقوب بن صنوع في مصر أن نأذن له بكتابة سطوره الأخيرة دون أن نقتحم عليه تفكيره أو دون أن نعترض سبيله غير أن من واجب المؤرخ أن يذكر في هذا الصدد

رأيه فيما نسبه الصحفى الثائر إلى نفسه من مبالغات، وما نراه في السطور التالية لا يخلو- في رأيي- من المبالغة ، وأن كان في مجمله يصور الحقائق الأصيلة في هذا التاريخ..

قال أبو نظارة في تاريخه الذي كتبه في أواخر القرن الماضى ولم ينشر بعد "وهكذا غادرت القاهرة محبوبتى في الثانى والعشرين من يونية سنة ١٨٧٨، ولن أتكلم عن وداع والدتى العجوز المؤثر، وكانت قد بلغت الثانية والسبعين من عمرها وقالت لي كلمة أخيرة أيها الابن الحبيب. أنها بلا شك ستكون الأخيرة لأنى لن أراك بعد اليوم ، وكان حديثها لسوء الحظ صادقاً ، فقد توفيت فى سنة ١٨٨٥ ولكن بعد أن سعدت بنبأ زواجي وانتظاري مولوداً ، وقد قيل لي أنها باركتني قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة".

"ويقول من كتب قصة حياتي من الوطنيين أن أيام سفرى من القاهرة والإسكندرية كانت حدثاً وطنياً، فقد كانت الجماهير مضطربة على غير عادتها ، ولكن الذي أثر في نفسي حتى أغرورقت عيناي بالدموع هو وصول القطار إلى المحطات اليت تقع بين القاهرة والإسكندرية حيث كان يقف بين الخمس والعشر دقائق ، فكانت النساء تحضر الفاكهة ويرفعن أولادهن إلى نافذة العربة لكى أباركهم . وكان الفلاحون يصيحين" لا تسافر وتتركنا بين مخالب شيخ الحارة" وهو الاسم الذي أطلقته على الخديوى إسماعيل .

"ولما بلغت الإسكندرية نزلت في ضيافة صديقى البير ماير الذي عرفته في فينا . وقد أعادت إلى الأيام التي قضيتها عنده جاء الذي كنت قد أفتقدته بافتراقي عن أهلى وأصدقائي، وفي التاسع والعشرين من يونية رجاني مواطنى المصريون أن أتوجه إلى تمثال مُحَّد علي الكبير الكائن في ميدان القناصل لأتقبل وداع الشعب".

"أن ذلك المنظر المؤثر لن يمحوه كر الأيام . وأمام عيون جواسيس إسماعيل أخذ سكان المدينة من رجال وسيدات أغنياء وفقراء ، يمرون أمامي صامتين محيين متمنين لى السعادة بصوت خفيض وفي اليوم التالى حوالي الظهر ركبت السفنية الفرنسية "فريسينيه" التي أقلعت بي إلى مارسيليا . لقد كان المشهد جليلاً. وقد أراد الخديوى أن يرانى بنفسه وأنا أغادر البلاد فمر راكباً عربته وقد أحاط به حراسه ، في الوقت الذي نزلت فيه إلى الزورق الذي سينقلنى إلى السفينة ، ولم تجرؤ الجماهير على الهتاف ب"يسقط إسماعيل" لكثرة عدد رجال الشرطة ، فأخذتْ تصيح "ليحيا أبو نظارة" وتعالت النداءات بعد ذلك "نريد نبوءة منك أيها الشيخ". وأعترف أننى أحترت فيما يجب أن أقوله. ولكنى شعرت كأن وحيا ألهمنى ووضع في فمى تلك العبارة: سوف يُنفى إسماعيل بعد سنة كما أُنفى أنا اليوم"..

"وقد شاءت المصادفات أن تتحقق نبوؤتي حرفياً مما جعل الناس في الشرق كله يلقبونني بالولى ولكن لنعد ثانية إلى سفرى فقد هبت علينا عاصفة كادت تؤدى بسفينتنا ، غير أن الله لبى رجاء شعب مصر المظلوم

بأن يحفظني ، وبلغت مرسيليا سليماً صحيحاً ، غنياً بالآمال لا بالمال ، أن سر نجاحي في الماضي والحاضر هو ثقتي التي لا تتزعزع في العناية الآلهية".

هذا هو ختام سيرة يعقوب بن صنوع في بلاده ، وهذه هي قصته منذ نشأ حتى نُفي، لم أر فيها ما يستحق التعليق الاختامها المشحون بالمبالغة كما أشرت إلى ذلك في أكثر من موضع ، وحسبنا هذا الجزء الأخير دليلاً على صدق رأينا ، فقد زعم المترجم له أن الناس خرجوا لوداعه رجالاً ونساء من جميع الطبقات ، وما أظن أن السيدات في سنة ١٨٧٨ كان في مقدورهن الخروج إلى الميادين والشوارع في مظاهرة أو شبه مظاهرة ، وقد نسى تقاليد بلاده والحريم الثقيل الذي يفرض حجاباً غليظاً يحول بين لقاء الرجال والنساء ولو كان ذلك في وداع صحفينا الكبير!! وقد أكد هذه المبالغة في أكثر من موضع في "رحلة أبي نظارة زرقاء"..

ثم تبدو المبالغة واضحة إذا دققنا في روايته عن وداع الناس له في "ميدان القناصل" قبيل سفره بيوم أمام عيون إسماعيل من الجواسيس ، فقد ذكر أن الناس حيوا بصوت خفيض خشية آذان أولئك العيون ، ثم ذكر لنا أن اليوم التالى كان حافلاً فهتف الناس له بحضور إسماعيل ، وما أظن أن القوم الذين يخشون عيون الأمير لا يخشون الأمير نفسه! وربما تخيل الرجل قدره ، وأنه كان جديراً بهذا الوداع سواء في ميدان القناصل أو قبيل نزوله إلى السفين..

وقد أيد وجهة نظرنا هذه بول دوبنيير فقال عنه "أن موليير مصر خلق لنفسه دوراً لا يخلو منه الزهو والغرور، ويبعث على الاعتقاد بأن

صنوع هو وحده قائد الحركة وواضعها والمتنبئ بحوادثها ، وهذه كلها أقوال لا تخلو من المغالاة والمبالغة التي تكثر عند الكتاب والتي ينبغى ألا نعيرها كبير اهتمام ، وهي على أي حال تكثر عند الغربيين والشرقيين على السواء ، فقد رأينا اسكندر ديماس ينسب لنفسه قيام ثورة يوليو والامارتين مقتنعاً كل الاقتناع بأنه قائد ثورة فبراير، فليس هناك أذن ما يدعو للوم صنوع على اعتقاده الساذج بأنه وحده صاحب الثورة المصرية ، وكيف لا يساوره هذا الاعتقاد وقد أخذت صحف مالية كبرى وعلى رأسها جريدة (الإصلاح المالى) تشيد بمقالاته الوطنية الساخرة وتعلق عليها أهمية كبرى لم تكن تخطر له على بال".

هذا رأى بول دوبنيير، وهو رأى وجيه جدير بالنظر والاعتبار لذلك وجب علينا ونحن نصور حياته من قلمه أن نؤكد هذا الرأى وأن كان هذا الرأى قد كتبه صاحبه ويعقوب في باريس ، وعندى أن المترجم له ، معذور في تخيلاته التي سجلنا طرفاً منها وهو يحكى عن سيرته مع الخديوى إسماعيل ، معذور لأن القوم في أوروبا اعتقدوا فيه اعتقاداً جاوز الحد ، وهو جدير بهذه الثقة وذلك الاعتقاد لأنه كان ممتازاً إذا تحدث أو كتب شعراً أو نثراً كما كان دارساً القضية المصرية دراسةً عميقةً أصيلةً ، ويعقوب معذور إذا بالغ وهو يروى حكايته بعد أن لقى من المدح والثناء غايتهما.

ومن أسباب المبالغة في تصوير حياته أقوال الصحف عنه ، ومن بينها صحيفة "الإصلاح المالي" المذكورة فقد كتبت عنه قائلة "هل لنا أن

نقدم إلى قرائنا ذلك الرجل الذي خدم بمفرده أصحاب رؤوس الأموال المصرية أكثر من مراقبى الدين بالاشتراك مع أعضاء لجنة التحقيق وجميع صحفيين أوروبا" ثم تستطرد الجريدة في روايتها الطريفة "وقد يبدو أن هذا القول فيه شئ من المغالاة غير أنه في الواقع صادق كل الصدق، فقد نشر صنوع جريدة "أبو نظارة" وأخذ ينبه المظلومين في مصر إلى أن إسماعيل إنما يرهقهم بالضرائب لا ليرضى مطالب الأوروبيين وإنما ليزيد من ثروته"..

"وقد أدرك الغرب كل ذلك وشعر الفلاحون بأن حقدهم للأوروبيين قد فترة ليزداد حيال الخديوى ، وقد تحدث يعقوب صنوع إلى المصريين بذلك الأسلوب التصويري المعروف عن الشرق فأيقظهم من سباتهم بعد أن كانت كواهلهم مثقلة بالضرائب ، وكان جزاء "أبو نظارة" على ذلك الطرد من البلاد والانتقال إلى فرنسا لمواصلة جهوده في سبيل مصر".

وأذن فهناك مبررات للزهو والغرور والمبالغة، منها أقوال الصحيفة المذكورة وهي تقدمه للناس ، ولم تكنْ جريدة "الإصلاح المالى" وحدها التي خلقت هذه المبررات بل ساهمت معها أكثر من صحيفة وأكثر من كاتب وأديب ، فلا تثري على أبي نظارة حين يبالغ ويتخيل الشعب في وداعه نساء ورجالاً، يهتفون له بالرغم من وجود الخديوى القاسى العنيف وعيونه من الجنود الغلاظ ، غير أن ذلك الزهو وتلك المبالغة لا يسقطان من اعتبار يعقوب ابن صنوع ، فقد كان الرجل فعلاً من رعيل الأحرار الأول الذين ذاقوا الأمرين في سبيل حرية بلادهم ونصفة مواطنيهم ، وأن كثيراً من التفاصيل التي رواها في تاريخه المخطوط ، لها أُولها في مجلته المطبوعة في

مصر، تجدها موزعة في الأعداد الخمسة عشر النادرة التي لا يحتفظ بها إنسان، والتي أسعدني الطالع بالحصول عليها مكتوبة بخط يده، وكان ذلك أمراً بعيد المنال..

ومهما يكن من أمر فنحن نختم في هذه السطور سيرة يعقوب ابن صنوع في مصر وهي فترة قصيرة من نشاط الممثل الكبير والصحفى الخطير، عرضناها في بسطة من الرواية إذ جمعنا فيها كل شاردة وواردة عن طفولته وصدر شبابه ، متحررين فيما رويناه من ضغط الظروف والملابسات.

إلى منفى الأحرار

إلى باريس...

حط أبو نظارة رحاله في باريس عاصمة العالم المتحضر، وعاصمة الأحرار المنفيين من الشرق والغرب ، وهي ملجأ أولئك الأحرار في كل زمان ، وملاذهم إذا لفظهم حاكم مستبد أو كرههم شعب ثائر، وهي لا تقبض صدرها– وأحياناً يدها– إذا لجأ إليها صاحب فكرة ، مهما يكن أمر هذه الفكرة ، فالحضارة الفرنسية لا تخاصم صاحب رأى رجعى فزع إليها ، أو صاحب رأى تقدمى ارتمى في أحضانها ، هي مفتوحة الصدر لكل من يغذ السير إليها ، يجد عندها السلوى ويجد فيها أدوات الكفاح من أجل الرأى ميسرة ، ويجد عندها العمل في أى ناحية من نواحى العمل ، ويجد عندها أهم من هذا كله ، يجد الحرية التي لا تعرف الحدود أو القيود ، فينطلق يعبر عن خوالج نفسه بالطريقة التي تعجبه وبالأسلوب الذي يرضاه ، يجد

نفسه في محيط وُلد الناس فيه أحراراً ، ليس لأحد فضل على أحد ، فكل إمرء صاحب فضل ، له أن يعلن فضله بوسيلته الخاصة دون رقيب أو حسيب..

وقد عاد صاحب فضل إلى منفى الأحرار..

هاجر يعقوب بن صنوع إلى فرنسا ، فلم يكن له متنفس إلا فيها ، فوصل إلى باريس لا يملك مالاً ، فقد كان ما يحمله من المال مائتى فرنك فقط ، وإنما كانت نفسه تضطرب بشتى الأمانى والآمال ، كمواطن حر صمم على محاربة الظلم في بلاده وإعلان مساوئ حكومته ، ومكافحة الاستعمار الذي بدأ يطل على وادى النيل، على طريقته الخاصة التي اتبعها أخيراً في القاهرة ، وهي نشر صحيفته ، وبذلك يصل ما انقطع ، يعبر فيها عن رأى الحزب الوطنى المصري الذي بدأ يتكون وتبين معالمه لكل ذى عينين ، لا يخاف أميراً أو طاغية أو جنداً أو قهوة مسممة أو نهراً استمتعت تماسيحه بأجسام كثير من الأحرار!..

ذهب "الولى" إلى عاصمة النور في صيف ١٨٧٨ طريداً من بلاده ، شهيداً من شهداء الحرية في عصر إسماعيل ، فقيراً لولا الحياء لكان التسول مهنته في الشهور الأولى ، غير أنه قاوم الفقر ومذلة السؤال ، وقد كان يلقى نخبة من المصريين الأغنياء المقيمين في باريس بعيداً عن وادي النيل وما يجرى فيه من أحداث ، وكان هؤلاء المواطنون يعطفون عليه ، ويدعونه إلى الغداء والعشاء براً به وعطفاً عليه ، وكان يصيبه من هذا العطف والبر حرج شديد ، حتى استطاع أن يحصل على عمل ، وهو عمل

المعلم الذي يدرس لتلاميذه اللغة العربية ويحصل مقابل ذلك على قدر من المال يسد به رمقه ويعينه على تهيئة الجو المناسب لمعاودة الكفاح من أجل مصر.

لقد كسب يعقوب المعركة الأولى في باريس بالعمل كمدرس ، وبصحبة نخبة منتقاة من الشرقيين والمصريين ومن رجال الفكر الفرنسيين الذين أطلقوا عليه لقب "المنفى المصري" وعاونوه معاونة صادقة ، ويبصرنا بأيامه الأولى بول دوبنيير في كتابه "مصر الساخرة".

من صور يعقوب في أوائل عهده بباريس

فيذكر أنه كان لشخصه صنوع أثرها الفعال في التمكين له من الحياة والنصر على متاعبها ، فهو كما يقول معاصروه ، شاعر بكل ما تحتوى عليه هذه الكلمة من معان تتجاوز قرض الشعر وروايته ،

فهو ماهر في تصرفه مع الناس على اختلاف ألوانهم ودرجاتهم ، قوى القلب والشكيمة حتى أن النفى لم يسقطْ اعتباره كما أن مرارة الغربة لم تقتل نوازع الخير فيه ، ولم يكن من طراز تلك النفوس الفارغة التي تلجئها المحنة إلى الانفراد والانطواء ، استناداً إلى خيبة أمل أصابتها أو جراح نفسية ألمت بها ، بل كان أبو نظارة على نقيض ذلك يطب لحياته بأسلوب تفرد به ، فكان يمتاز بروح مرحة تفيض سروراً إذا صادفتها مباهج الحياة ، ولا تشكو أو تئن إذا أصابتها صروف الدهر بسوء..

أن يعقوب بن صنوع يواجه في باريس حياة جديدة عليه كل الجدة، وكان يواجه تلك الحياة بما إنطوت عليه من خير وشر بنفس الابتسامة الهادئة المنطبعة على محياه ، لقد لقى حقاً ظروفاً قاسية في وطنه الجديد من حيث النواحى المادية، ولكنه تغلب عليها بالجد والاجتهاد والنشاط منقطع النظير، وهما من صفاته وخلائقه التي توائم طبعه المكافح العنيف ، لذلك لم تكن حياته في باريس أمر مذاقاً من حياة القاهرة أو أكثر شدة من

حيث الخصوم والأعداء ، بل كان الأمر على النقيض ، فقد كانت حياة تنفس فيها حراً طليقاً بين صفوة من أحرار الفرنسيين.

وجد أبو نظارة وسائل العيش قريبة التناول على ضفتي السين كما كان يلقاها ميسرة في معظم أيام حياته على ضفتي النيل، فقام بالتدريس لكثير من الناس الدروس المختلفة الألوان التي كان يلقيها في باريس كما كان يلقيها في القاهرة. بل أنه وسع نطاق تلك الدروس ، فأخذ يدرس حتى علوم الحساب والرسم والفلك ، وهي علوم كان يجهلها في مصر، ولم يفكر قط في تدريسها لمن كان يدرس لهم من الأمراء وغيرهم، غير أنه في عاصمة النور أكب هو نفسه على دراسة هذه المواد ليستعين بها على إعطاء الدروس فيها لمن يشائها ، ولم يكن عدد الدروس بالطبع كثيراً كما كانت الحال في القاهرة ، ولم يجد بين تلاميذه أغنياء كأولاد الأمراء والباشوات ، ولكن سوقه راجت تماماً في تدريس اللغة العربية لمن يريد دراستها وكان يعتبر عمله هذا عملاً وطنياً فيه شرف له حين يكتب التاريخ ، فأخذ يدرس مبادئ تلك اللغة للضباط الذين يتهيأون للسفر إلى أفريقية ، وإلى أبناء التجار المزمعين الرحيل إلى السنغال حيث يحتاج النازحون إلى تلك الجهات إلى فهم اللغة العربية حتى تستقيم لهم الحياة هناك ، كما أنه قام بتدريس اللغة الفرنسية لمن يريد تعلمها من أبناء العرب النازلين في باريس ، وقد تخصص هذا المصرى في هذه الناحية من النشاط وكان يعلن عن نفسه وعن تخصصه ذاك بكل وسيلة ، واحتفظت صحفه جميعاً في سنواتها الأولى بإعلان مستمر الظهور في كل عدد منها عن استعداده لإلقاء الدروس لمن يشاء..

تلك كانت وسيلته لكسب العيش الحلال في أيام المنفى الأولى فقد بدأ تاريخه في باريس معلماً للغات ، واشتهر في جميع الأوساط ، واستطاع بلباقته وقدرته في اللغة الفرنسية وآدابها أن يوثقَ علاقاته بكثير من أهل الرأى ويؤكد أواصر الود مع نخبة من رجال السياسة مختلفى المذاهب والآراء ، ويقيم هذه الصلات القوية بين الخصوم والأضداد ، ويلقى منهم جميعاً الاحترام اللائق بمواطن حر غريب عن بلاده يسعى في سبيل شرفها وكرامتها ، ويلتمس لهذا السعى كل وسيلة مشروعة يلجأ إليها الأحرار..

وقد حرج يعقوب بن صنوع من حفلة عشاء عند روشفور فيذهب مباشرة وبكل هدوء ودون أن يشعر بأي حرج إلى قصر الاليزيه (قصر رئيس الجمهورية) لحضور حفلة رقص يقيمها الرئيس "جرفى"، وكان المترجم له موضع إعجاب وتقدير المسيو دوفريسينيه وخصمه المسيو كل منصر على حد سواء ، وكان من ناحيته مؤمناً بكليهما ، مخلصاً لشخصيهما دون مواربة أو رياء ، وأن صداقته (لناكيه) داعية الطلاق لم تمنعه من مصادقة جيل سيمون عدو الطلاق اللدود ، وكان صاحبنا معجباً بفيكتور هيجو إعجاباً لا تقف دونه الحدود أو السدود ، بيد أن هذا الإعجاء بالكاتب الكبير لم يحلْ بينه وبين إعجاء آخر لخصوم هيجو ومنافسيه من أمثال ريشوبان وكلوفيس هيج.

وليس يعنى اتصال يعقوب بن صنوع بأقطاب الجمهوريين أنه خصم عنيف للملكية ، لقد كان نفسه من المؤمنين بفكرة الجمهورية وصلاحيتها لحكم الناس ، غير أن ذلك لا يمنعه من الولوج إلى الدوائر الملكية يتعرف

على زعمائها ويود صحفييها ، لا يفرق بين أنصارها المتنبذين، فهو صديق لدعاة أسرة (أورليان) كما أنه صديق لدعاة أسرة (بونابرت)، وكان جناحاً الملكية المذكوران يرحبان (بالمنفى المصرى) ترحيباً ملحوظاً ويحسنان وفادته، ومما يؤكد ذلك أن درية الفيجارو كانت تفرد مكاناً في إدارتنخا لعرض رسوم (أبو نظارة) الرائعة ليشاهدها الفرنسيون ويتعرفوا عن طريقها رسالة الطريد الحرفى عاصمة النور ويقفوا على تطور الأزمة المصرية في عالم السياسة الدولية..

ومن الأدلة على تكريم الأوساط الملكية له ما كتبته عنه جريدة (لوجولوا) حيث قالت "من ذا الذي يجهل أبا نضارة ذلك المصرى الذي لقبه الخديوى إسماعيل بموليير اللغة العربية أنه يعقوب بن صنوع الذي أسس جريدة شعبية عربية" ثم تستطرد الصحيفة قائلة "تراه أحياناً مهاجماً لاذعاً وهو دائماً خفيف الروح ، لقد اضطر إلى مهاجرة القاهرة والمجيئ إلى باريس للاستمرار في المهمة التي ندب لها نفسه.. إنه المعبر عن رأى الحزب الوطنى.. أنه أول من قال العبارة الآتية التي أخذت طريقها إلى الأمام وهي عبارة، مصر للمصريين..".

ومما يذكر ليعقوب بن صنوع أنه كان داعية لمصر في جميع الأوساط الفرنسية ، وفي محافل أوروبا أيضاً ، فقد كان ينتقل بين تلك الدوائر ، جمهورية وملكية ، يؤم مجتمعاتها ويحضر بحوثها ويلقى فيها محاضراته وما كتبه من الشعر الفرنسي ، ويترجم لها الرسائل الأخيرة الواردة إليه من مصر، ويكتب في صحفها المختلفة ، وتنشر له تلك الصحف أحاديث

طريفة يذكر فيها بلاده أحسن الذكر ، استمع إلى ما كتبه عنه المسيو جيهان سودان الكاتب الفرنسي ومحرر جريدة "هنرى الرابع" التي كانت تصدر في باريس إذ ذاك.

يتحدث المحرر عن يعقوب بن صنوع فيقول "لقد أبدى الجميع في أوروبا من انجلترا وفرنسيين وألمان وغيرهم رأيهم عن الأزمة المصرية ، فمن غير المعقوب أن أذهب فأطلب إلى أحد المصريين أن يبدى رأيه في تلك المسألة.. بدعى أن آراءه في مثل هذا الموضوع ستكون آراء معكوسة"..

ثم يقول "أنني قابلت هذا الزميل الذي جاء من بلاد بعيدة ، فياله من رجل شيطان!.. أنه يرتجل الشعر الفرنسي.. وقد استقبلني بعبارات ترحيب منمقة حسنة الأسلوب لا تخلو من الدعابة ، فقد وجد من الطبيعي- وإسمى- سودات- أننى أردت معرفة شئ عن مسألة السودان"!

"أخذ أبو نظارة يقلب صفحات مجموعة صحيفته ، ويشرح ما بها من صور وترجم لى بعض فقراتها.. أنها مجموعة غريبة حقاً فهى تحاكى في آن واحد جريدة لا لانرى دوروشفور وجريدة دوبوكيون حيث تبدو الصور الشرقية كأنها مقتبسة من أشعار النبى (أرميا) أو من أوصاف النبى (حزقيال)".

"فسواء شعرا أو نثراً ، وسواء توسلاً أو رجاء ، فهو دائماً يشكو آلام الفلاح ويعرب عن آماله في أن تسود السعادة والرخاء أرض مصر المباركة"..

"لقد سألت ابا نظارة رأيه في الأزمة الحالية قائلاً: هل حقاً يستطيع المصريون أن يكونوا شعباً؟ فقال لى ما معناه– يالكم من قوم عجب أيها الأوروبيون– أنكم ترسلون مندوبين أو ثلاثة من الظرفاء فينزلون القاهرة ولا يلبثون أن يرسلوا مذكرات عن مصر يصفونها حسب أهوائهم كأنها قطهة أوبريت.. وإذا قرأتم ما يكتبون صحتم قائلين: هذه هي مصر وأولئك هم المصريون ، أنها ب

لاد الرخاء ، يسكنها للأسف أناس كسالى متعصبون وجهلة، أما أنا فأقول لك أن الشعب المصرى ليس كسولاً بل هو على نقيض ذلك أنشط شعوب العالم طراً وأوفرها إنتاجاً، ليس الشعب المصرى متعصباً بل هو على عكس ذلك أكثر شعوب العالم تسامحاً على شريطة ألا يُستفز أكثر من اللازم ، والتاريخ على ذلك شهيد ، وأخيراً أقول أن الشعب المصرى ليس على درجة الجهل التي تتخيلونها ، فالمدارس المدنية والدينية التي أسستها الحكومة ، ومدارس القاهرة الحربية وخاصة مدرسة أركان الحرب ليست بدائية كما يظن الباريسيون الظرفاء".

ولا يقف الداعية الكبير عند هذا الحد من الإشادة بوطنه في أدق الظروف وأقسى المحن ، بل يمضى قائلاً للمحرر "ألا فاعلموا أن الكتب المدرسية المستعملة في مدارس مصر مترجمة حرفياً من أهم الكتب التي تدرس في المدارس المماثلة في باريس وولوتش وبرلين ، بل أكثر من ذلك فإن تراجم روائع الأدب الفرنسي منتشرة في مصر كانتشار أصولها في فرنسا ، وجميع تلاميذ القاهرة والإسكندرية يحفظون عن ظهر قلب

حكايات لافونتين ، بل ذرف جميع الشبان الدموع عندما قرأوا قصة الحب البائس لبول وفرجيني (وهي قصة مشهورة) كما بكوا عندما قرأوا رواية البؤساء، وأخيراً فإن قصة الفرسان الثلاثة ليس لها معجبون أفضل من الشبان المصريين ، وعندما أسست المسرح في القاهرة جاءنى في أسبوع واحد ثلاث تراجم لكى أمثلها على خشبته وهي تراجم "البخيل، والمريض بالوهم، وترتوف" ..

ويستطرد المحرر (سودان) تحدثاً عن آراء يعقوب بن صنوع في بلاده التي يحن إليها دائماً ولم يخف قط هذا الحنين ، ذاكراً أن المترجم له يعتقد أنه "لا ينقص الشعب المصرى سوى زعيم جدير به ، وهذا الزعيم– في رأى يعقوب – هو الأمير حليم أصغر أبناء مُحَّد على رأس الأسرة العلوية ، وقد وضعت مصر الفتاة في شخصه كل آمالها وأمانيها" وكان هذا الرأى أشبه بالعقيدة يبشر بها أبو نظارة منذ كان في مصر إلى يوم تولى عباس الثانى ومات حليم ، حتى أن صحف (أبو نظارة) المختلفة كانت تردد هذه الأمنية وتذكر دائماً أن ربنا "كريم وحليم"، وحليم هنا هو الأمير حليم مناط يعقوب وأمل أصدقائه في تغيير شامل يصيب الأريكة الخديوية ويرفع الظلم عن كواهل المصريين.

ولم يتردد أبو نظارة في إشاعة فكرة تولية الأمير حليم لعرض مصر عند جميع الجهات ، يرددها ليسمعها الفرنسيون في باريس والأوروبيون في كل مكان نزله يعقوب كاتباً أو خطيباً ، ويروى لنا ذلك المسيو مارتان المحرر والرسام بصحيفة (ايللستراسيون) الجمهورية الكبرى ، فقد صرح له

يعقوب بأنه لا يرى حلا للثورة القائمة في مصر– أيام توفيق– سوى اعتلاء حليم لعرش البلاد ، مبيناً الأسباب الموجبة لذلك ، وهي أسباب عرضنا لها من قبل وسوف نعرض لها على شتى الوجوه.

إنتزع الداعية الكبير والصحفة الموهوب ثقة وإعجاب أهل الرأى في فرنسا فقد كان يعقوب جديراً بهذه الثقة قيماً بهذا الإعجاب ، فهو فنان يجيد الموسيقى وخاصة العزف على "الصُفارة" كما كان ينظم الشعر، والشعر الفرنسى خاصةً ، وكانت له لفتات ذهن في قرض هذا الشعر سجلها له "سودان" في حديثه الذي ختمه بقوله "وسلت أدرى أن كان مقدراً لصنوع أن يكسب القضية التي يدافع عنها أم لا .. ولذلك فلست هنا بصدد مدحه أو قدحه.. غير أننا لا نلتقى كثيراً برجل مثل "أبو نظارة" له طابع مستقل قائم بذاته ، وعزيمة لا تعرف الوهن أو الهزيمة"..

هذا رأى الفرنسيين فيه حين نزل بلادهم ولم يمض عليه
إلا القليل من الزمن ، إستطاع في تلك الفترة القصيرة أن
يقيم الدنيا ويقعدها ، بل كانت له في أقاليم فرنسا
جولات ، بل كانت له في بلدان أوروبا سيرة طيبة ،

هي سيرة المصرى الحر الذي ندب نفسه للدفاع عن وطنه ومقدراته ، واستحق من الوطن– على الأقل– تكريم الذكرى ، والذكرى تنفع المؤمنين ، والمؤمنون هم المصريون الذين قلما يذكرون محن كرام مواطنيهم ، ولا يستعيدون أمجاد هؤلاء المواطنين الذين احترقوا على بعد المزار في سبيل فكرة الحرية والاستقلال لبلادهم .

ومهما يكن من أمر فإن يعقوب بن صنوع لم يقف نشاطه على الصحافة والعمل فيها ، بل استغل (أبو نظارة) مواهبه في سبيل بلاده ، فقد كان رجلاً واعياً دارساً فاهماً لحياة الأمم والشعوب: كما كان واسع الأفق دقيق الملاحظة "شاعراً صادق الشاعرية" فيه نواح "من الجمال الحق وصفحات سامية ذات قيمة وجديرة بأن تلفت النظر" هذه الصفات التي خلعها عليه معاصروه الأجانب قد استغلها المترجم له في السعى وراء مصالح بلاده حقول أخرى غير الصحافة، فخطب وحاضر حتى هز الرأى العام الأوروبى ، ومن روائع محاضراته محاضرته عن مصر في القرن التاسع عشر ومحاضرته عن الغزوة الإنجليزية لبلاده ، ومحاضرته عن المهدى وإخلاء

السودان ، وقد ألقى تلك المحاضرات في أقاليم فرنسا ودول أوروبا المختلفة..

وكما لقى يعقوب من صحافة باريس التمجيد والتأييد ، كذلك لقى مثلهما من صحف الدول والأقاليم التي زارها داعياً لبلاده فيها ، فقال عنه جريدة (لاجازيت دوبوردو) بعد أن وصفت شكله ومتاعب عينيه "وقد أصدر صحفاً ساخرة كانت تطعن خصمه بمقالاتها اللاذعة ، وقد اشترك في جميع الحملات التي شنت على الخديوى السابق.. وخلاصة القول فيه أنه قد أثار العجب بين جميع الذين استمعوا إليه لسعة إدراكه وشدة ذكائه".

ومضى الداعية المصرى من رحلته في الأقاليم الفرنسية إلى زيارة البلدان الأوروبية فخف إلى أسبانيا وقابل ملكها وملكتها وأنشد فيهما القصائد ، وتحدث عن وطنه في كل فرصة أُتيحت له ، ثم اختلف إلى بلجيكا ، وهناك خطب وكتب ، وذكرته الصحف أحسن الذكر، ثم انتقل إلى الإنجليزية تحسن استقباله فتقول أحداها عن زيارته "نرى اليوم بيننا صاحب جريدة عربية ساخرة مصورة تناوئ الخديو السابق وسياسته، وابنه توفيق وضعفه.." وتتحدث عنه (ذاديلي نيوز) فتقول "أن أبا نظارة يثير الانتباه من نواح عدة.." وتأخذ الصحف الأخرى في تقديم بعض المختارات من إنتاج الصحفى المصري الساخر، وتنشر جريدة (ذا تروث) بعض صوره الكاريكاتورية وتعلق عليها تعليقاً طويلاً مدجه الكاتب وما كتب ، معجبة بالمصور وما رسم..

وهكذا مضى المترجم له في زيارة دول أوروبا ، لم يترك دولة منها، إلا وزارها رسولاً ضد- انجلترا وفعالها في مصر أو السودان ، حتى ألف الرأى العام الأوروبى عليها في كثير من الظروف والمناسبات ، إذ بصر الساسة الذين لقيهم بمغبة التساهل مع الاحتلال الإنجليزي ، وبين لهم خطره على مصالح الدول الأخرى وما تركه من الأثر السيئ في نفوس المصريين والسودانيين..

ولم يقف أبو نظارة زياراته على أوروبا بل قام بزيارات لتركيا وبلاد شمال أفريقية وغيرها من البلدان استقبل فيها استقبال الغزاة الفاتحين ، وحاضر فيها عن ماضي بلاده وحاضرها ، وكشف أثناءها ستر الانجليز وما يصنعون في وادي النيل وقد سجل هذه الزيارات المختلفة في كتب خاصة كما نشر معظمها في أعداد صحفه المختلفة ، وقد أكد كثيراً من الصداقات مع أمراء تلك البلاد وملوكها ، ونال الحظوة لديهم فأمدوه بالمال وأنعموا عليه بالنياشين ، وساهموا في كثير من أعداد صحف أبي نظارة بالاشتراك طويل المدى ، ورد هو الجميل بنشر صور أولئك السادة والتحدث عنهم في عشرات الأعداد التي تضمنت سيرهم وأخبارهم ، مع كثير من المدح الذي ما كان يليق أن يسجله يعقوب وهو ثائر على الطغاة في مصر، والثائر على الطغاة لا يرحب بكل تافه وجليل من الطغاة في البلاد الشرقية الأخرى..

لقد كانت في صحفه الطرائف والغرائب ، كما كان فيها من روحه وفنه ما سما بها إلى مصاف الصحف الهزلية العالمية ، ولا تحسب عليها

الهنات التي وضحت في مدح زيد أو عمرو، فقد كان لصلات صاحبها ببعض الخاصة هنا وهناك أثرها فيما نأخذه عليها من هذه الهنات..

ولا تحسب على صحف أبو نظارة أخطاء الطبع التي كثرت في بعض سنواتها كثرة ملحوظة ، أو هذا الخط الرديء الذي تقلب على كتابته بعض الشرقيين وفي مقدمتهم الشاميون المقيمون في باريس ، وكان بينهم مجيدون في هذه الخطوط ، ظهرت جودة خطوطهم في معظم صحفه ، ولعل أردأ الخطوط خط يعقوب نفسه!..

ولا يحسب على تلك الصحف هذا الورق القبيح الذي استعمله المترجم له في طبعها ، فقد كان ذلك الورق القبيح نادراً في مئات الأعداد التي أصدرها، وكان الورق الجميل غالباً على معظم نسخها، ومن بينه ورق أبيض ناصع البياض ، أو ورق أسمر جيد طبعت عليه الصور ملونة تلويناً بديعاً ، ما كان يمكن أن تشرق عليه تلك الصور ما لم يكن ورقاً جيد الصناعة والعجين..

كانت صفحاً في الصدارة ، جديرةً بهذه الصفحات التي نوجز في التاريخ لها حين نعرضها صحيفة بعد أخرى ، ليرى الناس كيف أبدع ابن صنوع ، وخلق لوطنه اسما طبق الخافقين ، ومضى في ركب الحضارة يعلن عن بلاده ويترجم عن عواطفها ويحكى آلامها وآمالها في صدق وأمانة ، وفي ثقة واطمئنان..

صحفة في باريس

أًدر يعقوب بن صنوع في باريس أكثر من صحيفة..

أصدر الكاتب الأديب صحيفته الأولى ، وسماها "رحلة أبو نظارة زرقا الولى.." على الصورة التي سنشرحها بعد قليل ثم أصدر بعد ذلك، مجلة "أبو نظارة زرقا" وهي رجع الصدى لصحيفته الأولى التي أصدرها في القاهرة..

ولأسباب سنعرض لها اسماً بدل الاسم فجعله "النظارات المصرية" ثم "أبو صفارة" واضطر إلى تغييره مرة أخرى فأطلق على صحيفته اسم "الحلوى" ثم عاد إلى "أبو نظارة زرقا" وهكذا تعددت أسماء صحفه ، فإذا هي تتجاوز اثنى عشر اسماً قلما كانت واحدة منها تختلف في الطابع والمزاج، اختلفت في الشكل والأحجام ، واختلفت كذلك في جودة الورق والطباعة ، غير أنها جميعاً– وبلا استثناء– أدت الرسالة التى أخذ صاحبها على نفسه أداءها ، رسالة الدفاع عن الشعب المصرى، ثم الدفاع عن وحدة وادى النيل متمثلة في مصره وسودانه ، والحملة المتصلة المستمرة الملحة على أسرة مُحَمَّد علي ، فيما خلا بعض الفترات التي سيجيء الحديث عنها ثم الهجوم العنيف الرائع على السياسة الانجليزية عامةً والاحتلال البريطاني لمصر خاصةً أن صاحب هذه الرسالة كان في محنة، فقد اضطر إلى الهجرة من بلاده حيث نشأ ودرج ، وحيث ساهم في كل جديد عرفته مصر في عهد إسماعيل ، بل حيث خلق هو الجديد متمثلاً في المسرح الذي أنشأه ، وفي الصحيفة التي أصدرها، فإذا عاود نشاطه الصحفي فإنما

يعاوده لأبناء وطنه ومن أجلهم ، ومع ذلك فقد لقى المحنة مرة أخرى ، إذ نشطت الحكومة المصرية لمصادرة صحفه كلما حملتها السفن إلى الوطن الذي ما خف قط تحتاجه إليه ، نشطت الحكومة إلى ذلك في عهد إسماعيل ، وزاد نشاطها إبان الاحتلال البريطاني لبلاده ، فاضطر إلى تغيير اسم صحيفته أكثر من مرة حتى يوهم المصريين المسئولين أنها صحيفة لا تمت إلى يعقوب بن صنوع بصلة ، فإذا تنبهت الحكومة المصرية إلى الحقيقة اجتمع مجلس النظار وأصدر قراراً بمنعها من دخول القطر المصرى وما أكثر ما كان المجلس يجتمع لهذا الغرض! سواء اتصل الموضوع بأبى نظارة أو بغيره من صحف الأحرار التي يصدرونها في الخارج ليبصروا مواطنيهم بما هم فيه من ذل واستعباد وطال الأمر بيعقوب ، فقد أمضى نحو ثلاثين سنة يصدر صحفه ، وكانت تلك الصحف تصل إلى قرائها بالرغم من عيون الحكومة وأدواتها ، وفي هذا يحكى لنا يعقوب قصة بديعة ، فقد ذكر أنه وظف أول نقود ربحها في باريس في نشر صحيفته "أبو نظارة" وقد كان لبعثها رنة فرح في قلوب المصريين ، إذ كان الناس يعتقدون أنها اختفت إلى ما شاء الله ، ولما كان مكتب البريد المصرى لا ينتظر إطلاقاً أن يرى صحيفة "أبو نظارة" تخرج من رسمها ، وخاصة أن الخديوى إسماعيل أدعى أنه قبرها إلى غير رجعة ، فأن الأعداد الأولى لصحيفته دخلت جميع مدن وادى النيل وقراه الرئيسية دون أن يلحظ ذلك أحد من المسؤولين، وقد احتفى بها المواطنون احتفاء عظيماً.

ويذكر أبو نظارة أن أحد زعماء الحزب الوطني من أصدقائه العديدين كتب له يصف ذلك بقوله "لا يمكن أن تتخيل الاستقبال

الحماسى للأعداد الأولى من صحيفتك ، تلك الصحيفة التي اعتقد الجميع أنها ماتت ودُفنت، لقد أحسنت صنعاً بجعلها صحيفة مصورة . وأن الرسوم الغريبة التي حليت صفحاتها بها حازت رضاء سكان المدن والريف على حد سواء ، أن غضب الخديوى عظيم وعليه فأن صحيفتك لا تتمكن من عبور مكاتب البريد الخديوية".

ويمضى يعقوب بن صنوع قاصاً علينا الظروف التي أحاطت بوصول صحيفته إلى مصر، فيذكر أن صديقه القاهرى لم يكن يعلم سعة حيلته وقدرته على التوسل بشتى الطرق لإدخال صحفه إلى وطنه تحت نظر وسمع البوليس المصرى، فيقول "ولما كانت الثمرة المحرمة موضع تهافت الجميع من بدء الخليقة إلى يومنا هذا ، فأنه منذ أن نفيت في سنة ١٨٧٨ إلى اليوم كانت صحيفتى تدخل سراً إلى مصر وتباع بالآلاف. وما أكثر الحيل التي توسلت بها لتهريب صحيفتى رغم أنف البريد المصري الإنجليزي"..

ويذكر لنا يعقوب كثيراً من الطرائف المتصلة بإرسال صحفه إلى مصر، ويحكيها في أسلوب بسيط واضح يحسن أن تستمع إليه وحده في وصف هذه الطرائف دون تعليق ، فهى لا تحتاج إلى تعليق بما احتوت عليه من تفاصيل.

يقول أبو نظارة "كنت غالباً ما أضع صحفى في مجلات مصورة ، وفي كراسات الموسيقى، وبين أوراق كتب من حجم الثمن ، وفي مجموعات للرسم ، وقد وضعت في الجرائم التي نشرت صورة الخديوى توفيق سنة ١٨٧٩ أكثر من الف نسخة من صحيفتي ، ولم أكتف بإرسالها إلى

المشتركين العديدين ولكن بعثت بها أيضاً إلى جميع أصدقائي ومعارفى وقد تلقى الخديوى نفسه واحدة من تلك الصحف المصورة فوجد صحيفتى فيها ، وكان غضبه لهذه الجرأة شديداً وخاصةً لما وجد أننى نشرت في صحيفتى الخطاب الذي أرسله إلى يطلب فيه منى العودة إلى مصر ويعدنى بأحدى الرتب ، وقد رفضت هذا العرض قائلاً: أنى أفضل أن أعيش في المنفى على أن أكون غنياً في خدمة طاغيه".

ثم يستطرد أبو نظارة في رواية هذه الطرائف فيقول "وفي سنة ١٨٨٥ تمكنت من إدخال أربعة آلاف نسخة من صحيفتى بوضعها في "مرتبة" سرير ووسادتين لسيدة فقيرة عائدة إلى مصر. ولم يلحظْ رجال الجمرك شيئاً ، وقد شكرتني تلك السيدة الفقيرة على الجرائم التي تبرعت لها بها.. وقالت أنها ربحت من بيعها أكثر من خمسمائة فرنك".

"وقد قيل لي أن النسخ التى كانت تضبط بين الحين والآخر في الجمرك ، كان الموظفون يقرأونها أولاً ثم يعطونها لأصدقائهم ومعارفهم ، فإذا ما انتهى هؤلاء من قراءتها باعوها إلى الباعة (السريحة) بواقع خمسة فرنكات لكل مائة نسخة ، وكان الباعة يوزعونها سراً بثمن مرتفع جداً".

ويمضى المترجم له في سرد هذه القصة الممتعة من ألوان الكفاح التي زادت محنته حدة ، كفاح السعى وراء إرسال صحيفته إلى مواطنيه ، فيذكر أنه لما سفى المسيو أوجستان، وهو تاجر جرائد في الإسكندرية ، أعماله وعاد إلى فرنسا ، علمت أنه قد ربح ثمانين ألف فرنك من بيع صحيفتى خلال السنوات الست أو السبع التي كان يراسلنى فيها ، بينما كنت أنا لا

أحصل على تكاليف صحيفتى إلا بشق النفس ، فعُينت وطنياً بدلاً منه ، كنت أرسل إليه بانتظام خمسمائة نسخة من كل عدد بواقع خمسة فرنكات للمائة نسخة ، وبعد بضعة أشهر علمت ولله الحمد من بعض الخلصاء المنبثين في كل الوزارات والمصالح أن سعادة أورفرى باشا محافظ الإسكندرية الإنجليزي لما اتصل به أن مراسلى كان يستلم في منزله خمسمائة نسخة من يد شخص مجهول ، نجح في إغرائه بمنحه خمسمائة فرنك في الشهر عن الصحف التي كانت تصل إليه منى ، والتي لم تكن تكلفه مائة فرنك..

"وهكذا كان مراسلى يسلم المحافظ كل ما كنت أرسله إليه فما كان منى ، بدلاً من أن أعاقبه بالامتناع عن مراسلته أن أصبحت أرسل إليه ضعف الكمية: خمسمائة نسخة يعطيها للمحافظ وخمسمائة ليبيعها! وقد قبل مراسلي هذا العرض ، وظل المحافظ الذكى خمس سنوات يدفع للشيطان إعانة شهرية قدرها خمسمائة فرنك! ولم تنقطع الإعانة إلا بعد وفاة المتمتع بها! أما المحافظ فقد أصبح موضع سخرية الجميع ، لأننى قصصت هذه الحادثة المضحكة على كثير من الزملاء الصحفيين ، وقد نشروها معلقين عليها بما يثير الضحك"؟!

إلى هنا وقف يعقوب بن صنوع في كتابة تاريخه ، فعز علينا أن نتبين في وضوح يشبه الوضوح الملحوظ فيما سرده من هذه التفاصيل ، مدى المتاعب التي أحاطت بصحيفته في مصر ، والظروف التي إكتنفته في سبيل إدخالها إلى البلاد بعد ذلك ، على أننا نستطيع أن نتخيل أن هذه المتاعب

بقيت تلاحقه لأسباب أخرى غير ضغط الحكومة وتحفزها لمصادرة صحفه المختلفة ، فإن مصر– على مر الزمن– تمتعت في أيام كرومر بشئ من الحرية الصحفية التي أباحت لكثيرين إصدار صحف ممثلة لصحف (أبو نظارة) وتتفوق عليها بحالية الموضوع الذي تعالجه ، وقد أشار يعقوب إلى تلك الصحف الهزلية في مجلاته فضلاً عن أن النهضة الصحفية المصرية في عهد عباس الثاني صرفت قراء أبي نظارة عن صحيفته بالقدر الذي دفعتهم إلى الإقبال على الصحف المحلية المماثلة ، ويتضح ذلك من صحف يعقوب نفسها ، فقد انصرفت هي أيضاً عن علاج المشاكل المصرية بالطريقة القديمة أو على الأقل بالإلحاح المأثور عن صاحبها في تخصيص كل صفحات مجلاته لشئون مصر وحدها ، فرأيناه يعالج مشاكل عربية وأفريقية أخرى ، كان بعضها يستغرق معظم صحفه المختلفة ، هذا إلى أن ارتقاء عباس الثاني أريكة الخديوية. وإطلاق حرية الصحافة حسب السياسة الإنجليزية المرسومة التي استغلت الصحف لمهاجمة الخديوى الشاب ، كانت هذه الظروف قيمة بأن تجعل وصول صحيفته إلى مصر ميسرة ودون مضايقة ، وخاصة أن أولى الأمر من الإنجليز لم يجدوا فيها عنفاً يجاوز ما اعتادوه من الصحف المصرية المحلية ، وهي أقدر على رواية الحقائق وأعنف في علاج المسائل السياسية الشائكة.

بقيت مسائل هامة في تاريخ المتاعب التي صادفت يعقوب ابن صنوع ، هي كيف استطاع أن يصدر صفحة واحدة ؟ هل كان يساعده أحد في كتابتها أو كان يكتبها جميعاً؟ ومن أين كانت تجيئ إليه الأخبار؟

ومن ذا الذي قام بعمل الرسوم لها ؟ وفي ذلك تحكى الحقائق وتروى الأقاصيص والحكايات.

لقد كان يعقوب بن صنوع يلقى متاعب شاقة في إصدار صحفه ، وهو يقض علينا بعض ذلك في إحدى محاوراته على لسان (أبي خليل) بقوله "أن الطبع غالى قوى قوى في باريز، وأن الرسيم طماع وبيأخذ الشئ الفلاني والبوسطة وما أشبه".

وقد ردد الشكوى من غلاء الطباعة العربية وتكاليفها في المنفى في أكثر من موضع من صحفه الكثيرة، الأمر الذي ترتب عليه اضطراب مواعيد الصدور، ففترة تصدر مرة كل أسبوع وأخرى كل أسبوعين وأحياناً تصدر مرة في الشهر، وكان للحالة النفسية الخاصة بالمترجم له دخل كبير في اهتمامه بمواعيد صدورها أو تقاعسه عن ذلك ، وقد وضح لنا هذا الأمر في نفس (المحاورة) حيث ينذر أبناء وطنه بإهمال إصدار صحيفته إذا لم يجدْ صدى لما يكتب فيقول مهدداً أنه سيكتب "ثلاثين نمرة ثانية أنما إذا من هنا لهناك ماحصلش المراد والله وحياة أستاذي أبو نظارة معظمه ما أقرأ لهم السلام ، ولا يبقى على ملام ، وبشرط أنهم يسمعوا النصيحة وما ينتبهوش ويتبعوا المثل اللى قال أسعى يا عبدي وأنا أسعى معك وأن رقدت ما أنفعك.." مع أنه يعلم في سنة ١٨٧٩ أن كثيرين من أحرار الشبان فكروا أكثر من مرة في إصدار صحيفة مماثلة في القاهرة كلما تأخر عدد من أعداد مجلته ، وفي هذا معنى التقدير له ولصحيفته.

أما عن تحرير صحفه فلا شك أن القسط الأكبر مما كتب فيها كان من قلمه اللاذع الساخر، وخاصة محاوراته وألعابه اليتاترية ، كما أنه وحده صاحب الإيحاء بجميع ما نشر فيها من صور ورسوم ، وهو وحده الذي علق على تلك الصور والرسوم ، غير أن ذلك لا يمنع من ذكر حقيقة هامة ، هي أنه كثيراً ما كتب أو أشار برسم بعد وصول خطاب من صاحب أو صديق من مصر، متضمناً بيانات أو أفكاراً أو إيحاء بفكرة أو رأى ، ولا شك أيضاً في أنه نشر أشياء كما هي وردت له من مصر أو أقاليمها المختلفة ومن بيئات وجماعات متباينة.

وقد ذكر كثير من المؤرخين أن السيد جمال الدين الأفغاني والأستاذ الأمام الشيخ مُحَمَّد عبده حرراً طويلاً في صحف يعقوب ابن صنوع ، سواء في صحيفته التي أصدرها في مصر أو في صحفه المختلفة التي نشرها في باريس ، ورتب هؤلاء المؤرخون على ذلك أن المترجم له لم يحتمل وحده تحرير صحيفته ، والواقع يكتب ذلك كله ، فقد راجعنا مجموعات تلك الصحف نسخة بعد أخرى ، فلم نجد مقالاً واحداً للشيخ مُحَمَّد عبده ، وحتى في الفترة التي قضاها الأستاذ الإمام في فرنسا منفياً من بلاده لم يخط حرفاً في صحيفة كاتبنا الكبير ، فقد كان الشيخ منصرفاً إلى تحرير صحيفة (العروة الوثقى) التي كان يصدرها بمعاونة الأفغاني في باريس سنة ١٨٨٤، ولو نشر مقالاً في أي صحيفة من صحف أبي نظارة لمهره وكان ذلك شرفاً لها ، فقد كان يعقوب مؤمناً بقدر الإمام مقراً بفضله وعلمه بالرغم من الخلافات التي دبت بينهما في ظروف لا داعى لذكرها هنا.

أما السيد جمال الدين الأفغاني ، فله من يعقوب بن صنوع تاريخ آخر ، ذكرنا طرفاً منه حين كان المترجم له في مصر ، يختلف إلى ندوة العالم الكبير مع من كان يختلف إليها من النخبة المنتقاة والصفوة المرتجاة ، وهو الذي أوحى إليه بإنشاء صحيفته وشجعه على ذلك بنشر مقالين فيها جاء ذكرهما في إحدى المحاورات التي نشرها (أبو نظارة زرقا) وضمن خطاب وارد من مصر للمحرر جاء فيه أن تقريراً وضع للخديو سجل ما يأتي "يا أفندم قفشنا بياع أبو نظارة ووجدنا في جيبه جواب له من خواجته وفيه خطين لجمال الدين الأفغاني فبعتنا ندهنا الفيلسوف وورريناه الجواب فقال أن جيمس أعز أحبابه أنما حلف أن منذ سفره إلى باريس لا كتب له ولا ورد منه كتاب قط، وهو لا ينكر أنه كتب مقالتين في النضارة القديمة"..

وإذن فجمال الدين لم يكتب في صحيفة يعقوب إلا مقالتين في عددين من الأعداد الخمسة عشر التي صدرت في مصر قبل نفيه ، غير أنه نزل باريس ووصله أبو نظارة بالود وخف إليه كما كان يخف إليه في القاهرة، وقد تمكن من الحصول على تأييد السيد جمال الدين الأفغاني الأدبي، فكتب لصحيفته مقالاً نشره في صدر أحد أعدادها بعنوان (الشرق والشرقيين) وتوسط الصفحة رسم كامل "للسيد جمال الدين الحسيني الأفغاني" وقد استغرق مقال الفيلسوف الشرقى العدد كله بصفحاته الأربع ، ويبدو أن العلاقات بين الصحفي والفيلسوف لم تكن صافية دائماً. وما أكثر ما توترت العلاقات بينهما وسجلت أبو نظارة زرقاً التوتر في أكثر من موضع وأن سجلت أيضاً مدى الاحترام العميق الذي كان يكنه يعقوب لأستاذه وأستاذ الجيل جمال الدين الأفغاني.

لقد حرر بعضهم مقالات وطرائف لأبى نظارة ، ووقعوا على ما كتبوا ، غير أن ذلك كان قليلاً ونادراً جداً ، ونستطيع أن نجزم أن يعقوب بن صنوع قد كتب وحده صحفه زهاء ثلاثين عاماً أو يزيد، لم يمل أو يكل، ولم ينشر واحد من الكتاب أكثر من مقال فيما خلا صاحب مجلة النحلة التي كانت تصدر في لندن فقد وافاها بأكثر من مقال وخاصة في سنة ١٨٨٦، هذا إلى أن الكاتب حين ينشر من بريده المقالات القليلة النادرة لم يكن ينشر دائماً ما يوافق رأيه أو يتفق مع سياسته بل أنه سمح بنشر مقاله لا تجرى في فلكه ولا تنسجم مع طابع صحفه.

وقد اعتمد ابن صنوع على دراساته الخاصة ومعلوماته الواسعة في موضوعات السياسة المصرية التي عالجها في مجلاته العديدة ، كما اعتمد على الصحف المصرية الواردة من مصر، وخاصة جريدتى مصر والأهرام فقد كانت تلك الصحف جداوله الأصيلة التي ينقل عنها أخباره وحوادثه، وكانت تلك الأخبار والحوادث تمكنه من التعليقات الممتعة التي قرأناها له ، فضلاً عن أن كثيرين من معاصريه والمعجبين به كنوا يبعثون إليه بسرائل خاصة ، هذا إلى أن نخبة من أهل الرأى من رجال البلد كانوا يخفون إلى باريس أثناء الصيف، ويزودون المترجم له بمادة بديعة كان أثرها يظهر واضحاً في الأعداد التي كانت تصدر إبان الصيف، كان لصحف أبى نظارة رسام يقوم برسم الصور والأشكال ، وكان له مساعد يكتب صحيفته التي تطبع على الحجر ولا شك أن هذا المساعد قد تغير وتبدل أكثر من مرة لأن خط الصحف كان متفاوتاً بين الرداءة والجودة ، وكان من أسوأ الخطوط التي شاهدناها في صحف صنوع خطه نفسه ، فقد كان خطاً

معقداً تتعذر قراءته أو تقرأ حروفه بعد جهد ويشبهه في التعقيد خط مساعده في السنة الخامسة ومعظم السنة السادسة من أبى نظارة زرقاء..

وهناك "عموميات" أخرى غلبت على صحفه كلها مهما تتعدد أحجامها أو أشكالها أو أسماؤها، فهى جميعاً تتميز بمحاورات واحدة وأن تغيرت عناوينها وموضوعاتها قليلاً ، كما أن هناك أسماء ساخرة أطلقها في صحفه على رجال السياسة المصرية أو الإنجليزية ، عسكريين أو مدنيين ، فأبو ريضة هو رياض باشا "مملوك عباس جنتمكان" ونوبار "غوبار" وهكس هو "أخص أو عكس أو هلس" وكليفورد لويد هو "البلاص كليفورد" إلى آخر تلك الأسماء التي أجاد في السخرية منها.

رحلة أبي نظارة زرقا

هي صحيفة مستكملة نواحى الفن الصحفى وأن سماها "رحلى أبي نظارة زرقا الولى من مصر القاهرة ، إلى باريز الفاخرة بقلم جمس سانووا محرر جريدة أبي نظارة زرقه الباهية. والدة النظارة المصرية" وقد صدر منها ثلاثون عدداً ، كل عدد في أربع صفحات ،

محلى بالرسوم الكاريكاتورية، ونشر يعقوب العدد الأول منها في أغسطس سنة ١٨٧٨ أي بعد شهرين تقريباً من نفيه من مصر، على أن تصدر مرة في كل أسبوع ، وكان اشتراكها "خمسة وعشرين فرنك للثلاثين نمرة" ترسل للناشر في باريس بمجرد وصول "أول نمرة" للمشترك أو تدفع لأى "بنك فرنساوى" أو يبعث المشترك ثمنها عن طريق شراء "ورقة حوالة من البوسطة أو عن يد حبيبة أبو نظارة بيضا في إسكندرية".

لقد جاءت هذه التفاصيل خلال المحاورة التي نشرت في العدد الأول "بين أبي خليل وأبي العينين وأبي الشكر على قهوة البورصة بالأزبكية في اليوم السبت المبارك ٢٢ يونيه سنة ١٨٧٨" وجاء إلى أسفل ذلك الكلام حديث آخر أو إعلان ، لعله أول إعلان في صحيفة "الرحلة" عن الخمسة عشر عدداً التي صدرت في مصر وأنها تُطبع على ورق جميل بمطبعة حجر بباريس.

ويتضمن العدد الأول محاورة بين شيخ الحارة (أي الخديوى إسماعيل) وأبى نظارة ، وأبى الغلب الفلاح ، تحت رسم يصور يعقوب بن صنوع بقبعته ونظارته وعصاه والخديوى راكعاً والفلاح شامخ الأنف ، وقد جاءت في هذه المحاورة معان شتى يحسن تسجيلها له في هذه السطور.

شيخ الحارة– التوبة من دا النوبة اشتفق يابو نظارة على عمك شيخ الحارة ، جريدتك ضربها قاسى أخاف منها على رأسى دى حطت في قلبى الرعبه ، بأقوالها المخفية الصعبة ، إذا رفعت عنى الجريدة ، أرجع لطرايقي الحميدة.

أبو نظارة– أنت عمرك ما تتوب. ولو رجموك بالطوب. ده أنت أمرك عند الجميع معلوم. بقى كيف أشفق عليك يا مشئوم. والله ما أرحمك يا معطم الناس للسمك. يا خبيث يا مسموم الريق. يا قاتل الأمير الصديق (يقصد إسماعيل باشا صديق).

أبو الغلب الفلاح– ما تشفجش يأبو نظارة. الشفجه في الغاير ده خسارة. ده جتلنا من الظلم والجور. ونازل علينا زى ما ينزل السواج عالتور. جبر يلمه. ويعتقنا من ظلمه.

ثم تضمن هذا العدد أيضاً محاورة بين "أبي خليل وأبى العينين وأبى الشكر.." وقد استغرقت تلك المحاورة ثلاث صفحات من صفحات المجلة الأربعة ، وتكاد تكون بقية أعداد "رحلة أبو نظارة زرقا" صورة من العدد الأول المذكور إلا بعض أعداد تميزت ببعض مقالات باللغة العربية كرسالة

الشفعاوى وغيرها ، وأن كانت مقالات نادرة لأسلوبها العالى الذي لا يتلاءم مع روح الصحيفة الساخرة ، هذا إلى أن الصفحة الأولى في كل عدد تحتوى على صورة ترمز إلى معنى من المعانى التي تضطرب بها الحياة المصرية..

وليس في رحلة أبى نظارة زرقا إعلانات ، يستعين بها يعقوب على أداء واجبه الصحفى، بل أن كل الإعلانات ، اتصلت بالجريدة أو صاحبها معلم اللغات ، والإعلانات المتصلة بالصحيفة تتحدث عن اشتراكها أو تحريرها ، وقد عثرنا على إعلان طريف ندرجه هنا، وهو يعطى فكرة عن الوسائل التي كان يحصل بها يعقوب بن صنوع على كثير من المواد الصالحة للنشر.

قالت رحلة أبى نظارة زرقا تحت عنوان (إعلان) "المرجو من حضرات المطلعين على صحيفتنا من إخواننا أهل القطر المصرى الكرام وأصحابنا من أهل سورية والعراق والجزاير والهند وتونس وسائر البلاد العربية أن من يرغب نشر نبذة مفيدة أو نادرة لطيفة بأى معنى كانت فليرسل بها إلينا إلى عنواننا المحرر بذيله فأننا نبادر بإدراجها في الصحيفة ونتشكر فضل من يكرموا علينا بها وأن شاء ذكر إسمه أو إخفائه فله الخيار في ذلك فأننا نصنع كمراده على شرط إظهار إرادته أما بكتم اسمه أو بإشهاره".

أما عن رسالة "الرحلة" من الناحية النفسية فتتميز بالتخصص في الحملة على إسماعيل وأدوات حكمه ، وحض المواطنين على الثورة في

وضوح لا لبس فيه ، لم يخل عدد ، بل لم تخل صفحة من كشف خفايا حكم الخديوى، ما صنعه من قبل وما يصنعه اليوم ، فهو يحدثنا عن إسماعيل في زيارة المقابر، "أنت جاى متخفى مصفر اللون وناشف الريق ، تطلب السماح من قتيلك الصديق ، هو المخنوق من قبره قام ، ووراه المسمومين بكأس المُدام ، وبفنجان القهوة إياه، المعروف بضد ماء الحياة ، كل الأمراء دول قصفت عمرهم ، ويتمت عيالهم وكشفت سترهم..".

وبذلك يسجل يعقوب طرق تخلص الخديوى من خصومه الأمراء والوزراء ، وهي متعددة الأشكال والألوان ، من خنق إلى سم مذاب في خمر أو قهوة ، وهو يرتكب هذه الجرائم "حتى تموت معهم أعظم الأسرار" وزاد المحرر قارئه إيضاحاً بنشر صورة بديعة تفسر ما كتبه وتؤكد ما ذهب إليه..

ثم يسخر الكاتب سخرية لاذعة من حال الخديوى بعد أن تنازل عن أملاكه لسد الديون ، يسخر في زجل ممتع استغرق أكثر من نصف صفحة ، ننقل هنا بعض فقراته كعنوان لأزجاله التي تعبر عن حال صاحبها ، وقد جاء هذا الزجل في "محاورة بين أبى خليل وأبى نظارة في شانيليزه" وفيه يقول:

ايــه دى العبــارة المتعوســه　　صبحت دوايرى معكوسه

والحســـــرة في مغروســـــه　　دى وقعــتى وقعــة خرفــان

شرم برم حالى غلبان

ما اعرفش ايه من دا الطالع　　مقصـــودهم أبقـــى خـــالع

واطلـع كـدا مـنفض والـع		يا محـلا لمـا أصـبح عـريان

شرم برم حالى غلبان

دول سـلطوا المسترفلسـن		اكمنـه مجـدع وملسـن

لعـن خاشـى بركـات ورسـن		مـا خلالـيش في الـدرامات

شرم برم حالى غلبان

فجابولى عمى الشيخ نوبار		وعملـوه رئـيس الكبـار

يحمـر لى عينـه زى النـار		وأنا قاعـد قصـاده جـربان

شرم برم حالى غلبان

لقد نقلت بعض فقرات الزجل غير مراع ترتيبه ، نظراً لأن الفقرات التي تجاوزت عن نشرها تضمنت ألفاظاً لا يليق أن تنشر في مطبوع ويحسن أن يخلو منها ويبعد عن أسفافها ، غير أن الزجل في عمومه يؤرخ بطريقه خاصة للأزمة المالية التي اصطنعتها سياسة إسماعيل وحاشيته حتى انتهت بإنهيار اقتصاديات البلاد، وفي مقدمتها الشئون المالية الخاصة بإسماعيل نفسه ، الأمر الذي ترتب عليه رهن ممتلكاته وكف يده عن الشئون العامة جميعاً ، ونقل السلطة إلى مجلس النظار على النهج المعروف في كتب التاريخ.

صورة نوبار باشا أو غوبار!!

وقد شغلت الأزمة المالية تفكر يعقوب في (رحلة أبى نظارة زرقا) فلا يكاد يمضى عدد دون ذكر لها، وهو يحكى لنا في (محاورة بين أبى خليل وأبى

نظارة) عن تعيين المستر وليس وزيراً ، وأن كان سماه "فلسن" من الإفلاس! ويقص ظروف هذا التعيين فيقول أبو نضارة "بقى المستر فلسن لما قفش الجندى قفشة جد ودبدب له ورطن له باللسان وقاله قدام ياريس وما أشبه وطلب منه كشف دفاتر وحسابات والدواهى السود إياها ، فالجندي قال في نفسه– والجندى يعنى الخديوى– أخلص من رسول جهنم ده ازاى؟ نعمله ناظر مالية وأعطاه كم مفتاح إنما على حاصل فارغ ونفخه نفخة انكليزية وطبطب عليه وعزمه عنده أنما ماسقاهوش الفنجان القهوة إياه لسه ماجاش وقته".

ويبين يعقوب إشاعات الخديوى التى أطلقها بأن الأجانب هم سبب الأزمة المالية وأنه برئ ، وأنهم أفقروه مع من أفقروه من سائر المصريين، ولكنه يكذب ادعاءاته على لسان أحد المواطنين، وقد جاء ذلك كله تحت عنوان (محاورة بين شيخ الحارة والشيخ مُحَمَّد والشيخ منصور والشيخ عبد الرحيم) ننشر هنا طرفاً منها:

شيخ الحارة– بقى شوفوا يا أخوانى، الأفرنج هلكوا بدنى وأخذوا ماوراى وما قدامى وخلونى على الحصيرة وخربوا البر ونهبوا الفلاح.

شيخ منصور– لعنة الله عليهم (ثم يقول في نفسه) ما حدش حرب البر غيرك.

صورة كيف عبث إسماعيل بالمصريين والأجانب على السواء ؟

ثم يمضى الكاتب مبيناً أوزار إسماعيل التى ارتكبها حتى تأزمت الأمور المالية ، وقد فصل ذلك في عدد آخر تحت عنوان "لعبة تياترية حصلت في مدينة زيراب من بلاد الغرب وأسماء أشخاص اللعب، رشيد سلطان الكنوز، فانوس خزاندار دولته، فرعون ملك مصر، فلسن ناظر مالية، أعظم بنكيرية وتجار القطر المصري".

ويتخيل الكاتب اجتماعاً لمجلس النواب المصرى ، ويسجله تحت عنوان (البارلمنتو المصرى) ثم يذكر في محاورة حصلت "ما بين الشيخ عبد العال أبو جموس عمدة ناحية بيت العجل والشيخ مُحَمَّد بلاصى عمدة كوم الشقافة والشيخ عمر أبو عيش نايب كفر الجعانين وفلتس أفندى هلس عمدة تل جريس وسعادة محاور باشا رشدي رئيس المجلس ومنافق بك وهمى باش كاتب" مجلس النواب ولعل هذه المحاورة أمتع محاورات أبى نظارة في رحلته ، فهى صورة بديعة لما كان ينبغى أن يكون عليه نواب ذلك العصر، تخيلها الكاتب وأجراها على ألسنة المشايخ ، كما أنها تصور الظلم الفادح في فرض الضرائب والسياسة السيئة التي اتبعها وزير المالية الإنجليزي ، ننقل جزءاً منها ، ومن أزاد مزيداً في تفاصيلها فليرجع إلى المجلة نفسها.

الرئيس– (يوجه نظره إلى الأعضاء وينف ويبزق ويقول) سعادة ناظر المالية أرسل لنا إفادة رسمية باللغة الإنجليزية لأجل الضرائب الميرية لسداد الديون المصرية وتحصيل الأموال المتأخرة لغاية ثمانية وسبعين افرنجية ودفع المتأخر من الماهية والذي يتأخر عن السداد بالطريقة الحبية يعامل بالقوة الجبرية القضية فكلا منكم يبدى رأيه بالحرية للمداولة ولا تخافوا من شئ بالكلية.

أبو جموس– أن كانت المادة نفاق فأحنا نقر بالوفاق وأن كانت حرية نبدى أفكارنا القلبية.

الرئيس– شوف يا شيخ عبد العال أنا لا أعرف النفاق ولا المحال وأنا أحب الحرية نتكلم بخالص نية، وسلامة طوية..

أبو جموس– المادة ليس حاجه مداولة ولا كثرة محاولة احنا قبلنا كل النوائب اللى مرت علينا مع جميع المصايب وبعنا ما ورانا وما قدامنا ولا بقاش حاجة أمامنا ده أحنا كان عشمنا من فلسن والجماعة الأوروبين أن يخلصونا من العبودية لما سمعنا بأنهم ناس طيبين يكرهوا الظلم المبين فبسلامتهم مافلحوش ربنا يغنينا بفرجه العميم ويولى علينا رجل كريم حليم ويعتقنا من جور شيخ الحارة اللعين اللى سخمط وش الحمارة طين وأنا وحياة رأسك مافيش في بيتى ولا كيلة غلة ولا جاموسة ولا عجلة فيكفانا ظلم وخساير والله أعلم بما في الضماير وما تنطوى عليه السراير..

الرئيس– وأنت قولك اية يا شيخ مُحَّد؟

الشيخ مُحَمَّد– أحنا لا نعرف مدير مالية ولا ناظر خارجية دول ناس ملاعين يرطنوا بلسانهم الأعوج وهم لابسين بتوع طوال اسمهم برانيط راخيين شعورهم زى... [٢] ويدردعوا نبيذ كتير ويتغدوا بلحم الخنزير وأما أحنا ناس هواره نعرف طيب في قناية الفرس والحمارة وأعرف سعادتك أننا ما نقبلش زيادة ضرايب ولا كثرة مصايب وعاوزين تخفف المربوط ولا تسأل عن دبلنيير ولا مريوط وأن أنفلق شيخ الحارة ما ندفه ولا بارة وإلا أن كان القصد بحضورنا الآن الضحك علينا زى زمان فاحنا وحلانين وعن ذاتكم مستغنين وأن كان عاوزين النياشين بتوعكم خذوها والفلاحين أهى قدامكم كلوها لأن بلدنا وحياة رأسك بعد ما كانت حايزه كمال اللطافه أصبحت من كثرة الظلم كوم شقافة الله يجازى ابن الحرام.

خذخ خي قصة الدين والضرائب، عرضها المترجم له عرضاً بديعاً ينم عن فهم لواقع الحال في مصر إذ ذاك، وعرضها في ألفاظ ومعان مصرية خالصة ، وفي سخرية لاذعة جرت على ألسنة المشايخ الذين سماهم بأسماء ترمز إلى المفارقات العجيبة في البلاد ، فالشيخ "بلاصي" عمدة لكوم "الشقافة"! والشيخ "أبو عيش" نايب كعر "الجعانين"! غير أن الكاتب لا يعنى مطلقاً السخرية بالأعضاء وأن كان قليل الثقة في استماع الحكومة إلى آرائهم أو تقديرها لمكانة المجلس، وفي هذا يقول على لسان– أبو نظارة– "صار فتح البارلمنت اللى هو مجلس النواب وتليت فيه مقالتين طظ فش.. واحدة كأنها من شيخ الحارة والنائية بصفة جواب لها من رئيس

---

[٢] هنا كلمة يعف القلم عن تسجيلها.

المجلس وكلمتين من أحد الأعضاء علموهم له من قبل دخول المجلس أما أغلب الأعضاء هم جدعان أجرار لا يباعوا ولا يشتروا والظاهر أنهم اتفقوا على رأى واحد بالتكلم بغاية الحرية في المجلس مش زى زمان اللى كانوا دائماً يقولوا أى نعم أى نعم رأى سعادة الرئيس في محله وما أشبه".

وإذا أحسن أبو نظارة الظن بكتير من أعضاء المجلس فأنه لم يؤمن قط بحكومة الخديوى ولا بشجاعة وزرائه ، وهو يصورهم تصويراً يناسب أقدارهم الصحيحة في "جلسة سرية في جمعية الطراطير المشهورة بالضحك على دقون العالم تحت رئاسة السنجق الأكرم الأجل الأفخم عزيز أوغلو القوللى أحد أمراء الغز الذي ظلم أهل القطر المصري في سنة ١٢٠٣ وهلك سكانه" ويحدثنا عما دار في هذه الجلسة بعنوان "محاورة بين عزيز أوغلو رئيس الجمعية وبين أعضاء الشركة وهم داخلي أغا وخارجي أغا وسيفك مليح أغا واذرعلو أغا وحق نطاحى أغا وجهلى أغا وسهريج محافظى أغا" وعزيز أوغلو هذا هو الخديوى إسماعيل ، وأعضاء الشركة هم على التوالى وزير الداخلية ووزير الخارجية ووزير الحربية ووزير الزراعة ووزير الحقانية.

صورة مجلس الوزراء أو جمعية الطراطير المشهورة بالضحك على دقون العالم

أما جهلى أغا فيعنى به وزير المعارف، وهى تورية لطيفة عن وزراء العهد التافهين الذين كانوا أشبه بالطراطير! وقد أطلق على المحافظ الاسم الأخير المذكور.

وأننا حين نراجع تلك المحاورة الطويلة نجد أن المحرر قد أجرى على لسانهم ما يمثلونه من نظارات.

وقد اعتاد أبو نظارة أن يهاجم أدوات الحكم جماعات وأفرادا ويهاجم معهم بعض أعضاء البيت المالك ، ولم يسقط من حسابه حتى أميرات ذلك البيت ، مثال ذلك ما جاء في أحد الأعداد من حملة عنيفة علي نوبار، أو غبار كما يسميه بعنوان "عصبة الانجال على الوزير الدجال– لعبة تياترية حصلت في أيام الغز في اليوم الخامس عشر من شهر محرم سنة ١٢٩٦ أسماء أشخاص اللعب . أبو السباع شيخ الحارة، أبو الخير ختام، غبار وزير، توقيف ولى العهد، نحس ناظر جهادية، تحسين ناظر مالية، ستى محونة الوالدة ، خيالة هانم ، قرابه هانم ، علي أفندي شاويش خلخال أغا".

وهكذا أحد يعقوب بن صنوع يهاجم خصومه من الخديوى إلى الوزراء وكبار الموظفين ، تارةً بالمحاورات وتارةً بالأزجال البديعة وأن لم تخل من ألفاظ بذيئة لا تليق في معناها أو مبناها، ثم نجده بعد ذلك يحاول في "رحلته" أن يثير الجيش على تلك الحكومة التي حاربها بعنف وقوة ، وقد بدأ منذ العدد العشرين يدعو إلى تلك الثورة ، مبيناً لضباط الجيش ورؤسائه مدى الظلم الواقع عليهم، ويسجل لنا هذا في محاورة طويلة استغرقت ثلاث صفحات، وهو يعنى في تلك المحاورة التاريخ للحادث المشهور، حادث طرد بعض ضباط الجيش والتوقف عن دفع مرتباتهم ،

الأمر الذي أثار سخطهم ودفعهم إلى التظاهر كما تروى كتب مصر الحديثة ، فنجد في المنظر الأول وصفاً مؤثراً..

(في بيت الجهادي، غلبان بك أميرالاي، حزينة هانم زوجته ، جيعانه هانم بنتهم. وعريان بك إبنهم)!!

غلبان بك- (يمسح دموعه ويقول) والله لو لم يكن محرم عندنا في الديانة لقتلت نفسى وخلصت من العيشة المنحوسة دي، أهي الهانم داخله ووراءها العيال ولا شك أنها رايحة تطلب منى كم قرش تبعت تجيب بهم رغيفين عيش وقطعة جبنة وإلا نموت من الجوع ، وأنا ربنا عالم ما في جيبي خمسة فضة ، هو المدبر.

حزينة هانم- (تدخل وفي يدها الأطفال) صباح الخير يا سيدي.

غلبان بك- آه النبى يا أولادى من يوم ما تولى علينا شيخ الحارة السعد سابنا ومشى، فين أيامك السعيدة يا سعيد ؟ كانت الجهادية متشرفة ومسرورة مش زى اليوم جعانه ومقهورة.

حزينة هانم- والعمل يا بيك؟ قول أحنا الاتنين نقدر نصوم أنما العيال دول والله بيجرحوا قلبى كلما يقولوا لي يا ماما بدنا ناكل. اليوم مافطرناش بقى ما احناش رايحين نتغدى.

غلبان بك- لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، ياليتنى كنت نجار أو حمال أو زبال كنت على كل حال أُدر على قوت عيالى ولا أشوف بيتى في الفقر ده فصدق من قال فيه الفقر كنز البلاء، الفقر هو الموت

الأحمر، ما ضرب العباد بسوط أوجع من الفقر، الفقر في الأذن وقر، وفي الكبد عقر، وفي القلب نقر، وفي الجوف بقر، واحنا يا أولاد مصر صبحنا على الحصيرة ولا نحن واجدين لقمة نسد بها جوعنا وساكتين على غلبنا، ياخي خلينا نغور والله نستاهل أكثر من كده وفرعون قليل ظلمه فينا.

وتمضى المناظر، منظراً بعد منظر تحدثنا عن سخط غلبان بمك وجرأته على الخديو حين قابله محتجاً على حاله ، وجوع عياله وما انتهى إليه أمره من تناول القهوة المسمومة في قصر إسماعيل وموته ، وكان أنكى ما في القصة تصوير المؤلف لختامها حين أمر أتباع الخديو بانزال تابوت الميت من على أكتاف زملائه حتى يدفع الضرائب المستحقة عليه! ولولا "خواجه نصراني" تبرع بالمطلوب لكان ختام القصة أبشع ما عرف في القصص والحكايات!..

ثم يمضى أبو نظارة في مدح الضباط الذين تجمهروا عند رئيس النظار، ويروى ما حدث تحت عنوان (محاورة ما بين أبو الخير وأبو اللطف الجهادي) وهي في الحق رواية من أصدق الروايات عن ذلك الحادث التاريخي الذي اختلف في تفاصيله كثير من المؤرخين ، يصف ذلك بقوله "فاجتمعنا وتحالفنا بلسان واحد ، وحررنا عرض حال وطلبنا صرف الماهية والراحة العمومية وتوجهنا به إلى أندال الرجال ، وهيئة الدجال مجلس النوائب ، وأخذنا أعضائه ، وتوجهنا للمالية ، فتصادفنا مع الغاير غبار فصحنا وقلنا له معنا عرض حال فقال، سكترجت أدبيس هرفلار، وأمر العربجي بضربنا بالكرباج، فالتزمنا أن نحفظ شرف الجهادية وانزلناه من

العربية! وأرجعناه إلى المالية بالقوة الجبرية، ثم ظهر فلسن فأفهمناه بالرجوع فامتثل ورجع بدون إهانة ، ثم الفرقة المخصوصة أحضرت علي مبارك بمزيد التحقير وكلنا شاكين السلاح ومتوكلين على الفتاح ، وكانت ساعة عظيمة ، ثم حضر الفرعون الأكبر ومعه قدر ألف عسكري فأمرهم بضربنا بالرصاص فأطلقوا بنادقهم الأرياح ولم يصبنا شئ..".

كان يعقوب بن صنوع يريد من هذه الفصول الكثيرة التي كتبها ضد الخديوى إسماعيل أن يتجه بها قليلاً إلى الجيش ، وكثيراً إلى بقية المواطنين ، ولقد كان يبصر مواطنيه بظلم الخديوى مبيناً لهم أنه حاكم يجب أن يعرف حقوق مواطني عليه ، وأن الدنيا قد تغيرت "دلوقتى راحت السكرة واستيقظ الفلاح وجاءت له الفكرة ، ومن مدة كم يوم فاق وصحى من النوم ، وفهم أن رب العالمين خلق عباده حرين ، وجعل الملوك في كل مكان على الرعايا كالرعيان ، يدلوهم في طريق الفضيلة ويعلموهم العلوم والفنون الجميلة ، مش زى شيخ حارتنا الظالم اللى ما يقدرش يشوف في بلاده رجل عالم ، إلا وحالاً يعميه وفي بحر النيل يرميه ، تبقى عياله عليه مغمومه وأسماك البحر تعمل عليه عزومه ، أنت نسيت الصديق وما جراله وذل حال حريماته وعياله ، وكم من أولاد حارتنا يا ناس نعل خاشهم وأسقاهم دا الكاس ، إحنا أندال قاعدين ساكتين ولأوامر الظالم ممتثلين".

وبعد فإن يعقوب بن صنوع قد أمتعنا في (رحلة أبي نظارة زرقا) بما قدمه لنا من محاورات وفصول تمثيلية تتفق وذوقه وتجرى مع سليقته وتوائم طبيعة الممثل فيه ، وقد ضمن ذلك كله كثيراً من التاريخ وأقوال العامة

وحكمهم في أسلوب مصري عامي تخللته أحياناً بعض ألفاظ تركية وأجنبية وشامية ، ولكى نستوفى قصة هذه الرحلة غايتها يحسن أن نؤكد للقارئ بأن يعقوبا لم يكن كاتباً للغة العامية يجيد عبارتها ويحسن صياغتها وحدها بل كان إلى جانب ذلك أديباً في اللغة العربية الأصيلة، نشر بها في (الرحلة) فصولاً بديعة دلتْ على علمه بأصول الدين والدنيا..

استمع إليه يقول (الحلم أجل من العقل لأن الله تعالى وصف نفسه به) ثم يتمثل بأقوال أئمة الدين في هذا الموضوع فيقول "ما بعث الله نبيا إلى قوم إلا بعثه وأمره بالحلم"، أو كما قال "ما بُعث شئ إلى شئ أحسن من علم إلى حلم".

ومن موضوعاته الأدبية "النصيحة اللؤلؤية للمسامع الخديوية" ثم "رسالة الشفعاوى" وقد نشرت في أكثر من عدد وهي في أسلوب عال يختلف كل الاختلاف مع طابع الصحيفة وما تضمنته أعدادها الكثار، وتتميز بعمق الفكرة ، وسلامة العبارة ، وانتقاء الألفاظ ، استمع إليه يحدثنا فيها عن ظلم الحاكم إسماعيل وسيرته السيئة "وكفاك أنه لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً ، ولا يوجد في وقت الصلاة ألآ جنباً ، وفي رمضان إلا مفطراً ، نعم يصوم ولكن عن الخيرات، ويستقبل الفجور متلطخاً بنجاسة الفحشاء ، فأجر يقتات بالكبائر ، ويتفكه بالصغائر ، ويروح من مولاه شاكياً ولشيطانه شاكراً ، فكأنه عاهد ابليس فلم يخن له عهداً ، ووعده أن يجد عنده كل معصية فلم يخلف له وعداً ، أن ذكر الأنقياء والأخيار، قال احضروا إلى الحكيم وأن سمع بالأشقياء الأشرار،

قال غنى بذكرهم يا نديم ، فرعون بالنسبة إليه حاكم عادل ، وأبو جهل أن قيس به إمام فاضل، وليزيد لو مائله لما اضطربت أقوالهم في جواز اللعنة عليه ، والحجاج لو شاكله لما اختلفوا في نسبة الكفر إليه".

"ولكنهم ليسوا أكفاء له، فلو عادوا لاتخذوه أمامهم ، وسلموه زمامهم.. فإنه هتك أستاراً ماهتكوها، وانتهك حرمات ما انتهكوها ، وظلم حتى أهل القبور، وجار حتى على السمك في البحور، فلو مسخه الله ذئباً لفتك بجميع الحيوان ، أو حية لما بقى على وجه الأرض إنسان، وحسبك أنه يحب المظالم حبه لأولاده وأحبائه اللئام ، ويبغض المراحم بغضه لأضداده وأعدائه الكرام..".

هذه هي سيرة (رحلة أبي نظارة زرقا الولى..) قد عرضنا لها جملة وتفصيلاً ، وبينا مواضع القوة والضعف فيها ، وهي بالرغم من كل الهنات التي لاحظناها في أنشائها وأخطائها الإملائية والمطبعية تعتبر في ذمة مؤرخ الصحافة عملاً جليل القدر ، وخاصة إذا راعينا أن محررها قد أعد لها العدة في ظروف مادية قاسية وفي عجلة ودون تأنى، فأنه لم يستكمل شهرين في المنفى إلا وكان العدد الأول من (الرحلة) قد ظهر مطبوعاً على الحجر برسمه الجميل ، وهذا نشاط صحفى كان ينبغى أن تظهر آثاره على مهل حتى يجئ كاملاً مستوفياً كل أسباب النجاح..

أبو نظارة زرقا

ابو نظارة زرقا.. "صحيفة أسبوعية أديبة علمية ، بها محاورات ظريفة ، ونوادر لطيفة ، ومواعظ مفيدة، ومقالات فريدة، وقصايد عجيبة، وأدوار

غريبة، مديرها ومحررها الأستاذ جمس سانووا المصرى مؤسس التيارات العربية في الديار المصرية ، قيمة الاشتراك عن ٣٠ نمرة ٢٥ فرنك".

يقرأ الكتاب من عنوانه! أو تقرأ الصحيفة من أهدافها ، وقد أعلنت "أبو نظارة زرقا" عن أهدافها في تلك البيانات التى سجلناها، وقد حققتها جميعاً وجاءت فيها بالمعجب والمطرب ، وعاونها على أداء رسالتها هذا الأداء الحسن الظرف الدقيق الذي كانت تمر فيه مصر إذ ذاك، فقد اشتدت أزمة إسماعيل وتم عزله، وتولى توفيق وتلاعب السلطان بفرمان تعيينه ، وعين رياض باشا ناظراً للنظارة فهاج الأحرار وصرعت صحفهم الواحدة تلو الأخرى ، وهذه كلها مادة يستطيع أن يجول فيها صنوع ويصول ، ويؤرخها على طريقته المعروفة.

لقد كان يعقوب يعرض على مواطنيه مآسى الأزمة المالية عدداً بعد عدد، وكان ناقداً مر النقد، قاسياً أشد القسوة على الحكومة والخديوى الأجانب وخاصة الانجليز، غير أنه لم يكن يريد ، مهما تكن الأسباب، أن ينتهز أحد فرصة الارتباك المالى فيحتل البلاد ، أو تصبح البلاد في يد حكومة أجنبية تدبر أمرها ، وهو يفضل "الموت ولا العيشة تحت تسلط حكومة أجنبية" غير أن ذلك لا يمنع المترجم له من الترحيب بعزل إسماعيل وتعيين حليم ، وقد أجرى هذه الأمنية على لسان "أبى العينين" حين قال لأبى الشكر "ده شيخ التمن (يقصد السلطان) كتب لدول أوروبا أنه رايح يرفد شيخ الحارة ويولى عمه بداله وهم حاوبوه وقالوا له الحارة حارتك أعمل فيها كما تشاء".

ثم هاجم أبو نظارة الخديوى إسماعيل وكرسى الحكم يهتز من تحته اهتزازاً عنيفاً، ولا يرى هناك أملاً في مستقبل مصر وحاضرها على يديه، بالرغم من تعيينه لشريف باشا ناظراً للنظار، وهو ممثل الديمقراطية الهادئة والفئة الرشيدة أيام إسماعيل، وفي ذلك يقول في رسالة "من أبى نظارة معظمة في مصر إلى أبى نظارة زرقا بباريز".

"ولا تظن الوزارة الجديدة يطيل عمرها بل تستعفْ عن قريب لأن ما زال الجندى يلعب بديله كسوابقه، وأوامره يصير أجراها بدون علم أبو شرف وبابا راغب ، والظلم والجور على حاله ، ولا بيطلع من يدهم شئ معه ، وصدق من قال لا تفرحوا لمن يروح لما تشوفوا من يجيئ، شوف يا عزيزى، إذا رب العالمين عين سيدنا موسى ناظر مالية وسيدنا عيسى ناظر خارجية وسيدنا مُحَمَّد ناظر جهادية كن ميقناً أن الفرعون ليعم شغله بسحره ويضحك عليهم ، وكلما مسكوه بسرقة وقالوا له جزا الحرامى قطع يده يقول لهم والكاظمين الغيط والعافين عن الناس توبة من دى النوبة، فلذلك أقول وهذا رأى جميع أبناء عمرها ما حصلت لأن العالم هنا يئست وقطعت الرجا والدنيا صبحت سودا أمام عيونهم ولا أحد بيشفق عليهم".

ثم يصور لنا نفسية إسماعيل على لسان إسماعيل في تلك الظروف التي كانت تمر به ، أنه في فزع وخوف بالرغم من أن سيد البلاد.. أنه يؤرخ لنا عن الحاكم المستبد الذي عجزت صحيفة معاصرة في مصر عن أن ترسم له هذه الصورة البديعة ، وما كان في وسع جريدة أو مجلة في البلاد أن تقص على قرائها ظروف إسماعيل المضطربة ، ولكن صنوعاً يبدع في

الوصف ويمتع فيهذا الخيال الذي جاء بعنوان "شيخ الحارة" وهي "لعبة تياترية حصلت في أيام الفراعنة ، وأشخاص اللعب هم شيخ الحارة وهانم وشمعدان أغا حريم وتوقيف أفندى ونحس وتحسين ورياض وأبو الحلم ومجدع الجهادى وحدة ابن البلد وعمر شهامة فلاح".

صورة الخديوى توفيق أو توقيف كما يسميه أبو نظارة!..

ولسنا نريد أن نطيل في اقتطاف بعض ما جاء في اللعبة التياترية، وأن كانت جديرة ينقلها جميعاً، غير أننا سنقتصر على إسماعيل وهو في حجرة نومه لم يمسسه الكرى، ساهد حتى مطلع الفجر، يحدث نفسه حديثاً ممتعاً فيه صورة بديعة لشخصية الخديوى وطرائق نظره إلى الحياة ورأيه في وطنه ومواطنيه..

يقول إسماعيل "راحت عليك يابو السباع آه.. الله يلعن اليوم اللى فيه توليت شيخ حارة ، ده كان يوم نحس وأنا كان مالى ومال الشبكة دى اللى زي الطين ، المكتوب عل الجبين تراه العيون ، نعمل ايه في طمع الدنيا؟ أينية صبحت أشقى مخلوقات الله والخوف قاتلنى، مائتين عسكرى ومدفعين حول سرايتي وبرضه مرعوب ، وكل ما أسمع حد قابل على أنفزع وقلبي يطب وأقول في نفسي أهم ضباط الجهادية وتلامذة المدارس وأولاد البلد والفلاحين جايين ينتقموا منى ويقبضوا روحى ويأخذوا مفاتيح السهاريج وينهبوا الأموال اللى لميتهم بغاية التعب والمشقة ويولوا عمى العديم شيخ حارة عواضي، بلا هلس.. ده أنا سيدهم في المكر ولا أخاف من ملك الشياطين أما الجماعة مستحلفين لى بقطعة علقة صنعه ، ما

يطلعش من يدهم حاجة ، البصاصين كتير، ومأمور الضبطية جده ولى حبايب أصدقاء بين الضباط والتلامذه وبيعرفونى بكل اللى يحصل يومى ، أما أبو نضارة اللعين راح جدد له جرنال تانى وقال في حب الوطن. آهو زى الكلب اللى بينبح خليه يعوى.. إيه يا إسماعيل.. أنت بتسلى غلبك وهمك بالكلام ده إنما قلبك بيرجف وضميرك في قلق ، أهو الليل بيفوت بطوله وعينك ما بتدوق النوم ، آديني سامع تشخير الآغاوات، يا بختهم دول مبسوطين ولاهم عارفين الدنيا بتعمل ايه ، والناس اللى ما تفهمش الصورة ايه تقول عليهم دول مساكين لكونهم محرومين من لذات الدنيا ، آه يا مغفلين والله ماحد محروم غيري أنا، لكونى ما بستلذ لا بأكل ولا بشرب من خوفى أن خداميني يسمونى، ولما أخرج من البيت كلما أعدى على شارع وأجد فيه زحمة يبان لى أن يوم القيامة جاء وانظر يمين وشمال ومن لحظة للحظة يتراءى لى أن العالم رايحه تهجم على عربيتي وتهلكنى، ياخى لا، والله إنى مجنون، هو أنا في أوروبا؟ إحنا في مصر وأولاد مصر يخافوا من خيالهم ، ودى ناس ذرطه من غير مؤاخذة تطيرهم ، وإلا مكنتش خلصت من أياديهم يوم قيامة الضباط ، أديني بعمل بكيفى ولا حد قادر على غبار طلعت عليه ضامه وشقلبته رغماً عن أنف مشايخ حوارى الافرنج ، وفلسن وبلانور دسيتهم في جيوبي، وبإذن الله انتصر على شيخ التمن وأحطه هو ووزيره في الجراب ، أما اللى غايظني أنا، هو أبو الحلم لأن كل الشعب هنا بيحبه ، وإلا ما كانوش يكتبوا لشيخ التمن ولأعظم ملوك الأفرنج ويتشكوا من جورى وظلمى ويقولوا عاوزين لهم شيخ حارة كريم حليم ، الله ينعلكم يا أهل مصر، يعنى أنا عملت لكم ايه

؟ أنا شاريكم من عبد العزيز، ودايماً السيد يفعل في عبده كما يشاء، فلوسكم دى فلوسى وأنتم ملزومين تخدمونى بالسخرة ، وإلا الفرق بينى وبينكم ايه ؟ أما الفلاحين بيموتوا من الجوع ، إن شاء الله مافضلوا، الفلاح ماهوش بنى آدم، الفلاح بهيم وربنا خالقه للتعب زى الثور، والثور أنفع منه لأنه بيعطيني لحمه آكله ، أما الفلاح نتن وهو حى، وبعد موته القبر فيه خسارة ، لو كان هنا هذا الخنزير أبو نضارة ، كان بقول لى القبر خسارة فيك يا فرعون لكونك بتظلم خلق الله ، أنما أبو نضارة نفيناه من حارتنا وأهو قاعد بيشحت في بلاد فرنسا ، آهى الشمس طالعة وأنا لسه مانمتش. آه من عيشتى! ما أمرها! والعمل ايه؟ الشيطان يدبرنى..".

لقد اكتفينا بنحو نمر من الصفحات الثلاث التى نشرها أبو نظارة ليصور فيها نفسية الخديوى إسماعيل قبيل عزله بشهور قليلة ، وقد تعرض فيها الكاتب لعبث الأمير بشئون الحكم ونهمه في جمع المال ، ثم شرح حياة القصر كأنه واحد من أقرب المقربين إلى الخديوى، فعرض أسرار بيت إسماعيل وفضائحه ، كما قال رأيه في "أولاد مصر" على لسان إسماعيل فقد كانوا حقاً يخافون خيالهم وإلا لثاروا على الطاغية وثلوا عرشه ، ولكنهم استكانوا حتى تدخل الأجانب فعزلوه بعد نحو ثلاثة أشهر، ثم شرح رأى البيت المالك في الفلاحين المصريين ، وهو رأى توارثه الخلف منهم عن السلف.

لقد شرح أبو نظارة لقرائه نفسية إسماعيل في عدة فصول من "لعبته التياترية" وهو لا يريد أن يختم هذه "اللعبة" دون أن يبين لهم طريق

التخلص من الظالم ، لعل ما دار بذهنه يعجبهم ، أو لعل الشجاعة تواتيهم فينهضون لإنقاذ بلادهم بطرد إسماعيل ، وقد رسم لهم ذلك في المنظرين ، الرابع والخامس، ننشرهما هنا، فقد كان أكرم، للمصريين لو استطاعوا تمثيل هذين الفصلين على الصورة التي بينها الكاتب الأديب.

(المنظر الرابع في شارع عابدين، شيخ الحارة وتوقيف ونحس وتحسين ورياض حاملين أكياس على أكتافهم وأوراق تحت باطهم ووراهم دستة قواصة ثم مشايخ الأزهر).

رياض– اتلحلحوا يا جماعة مانتوش سامعين الزعيق من بعيد (الجميع يرمحوا).

مشايخ الأزهر– (على بعد) ربنا كريم حليم يأبو نضاره الله ينصرنا على شيخ الحارة.

توقيف– حتى المشايخ ضدنا ، ده أنا يوم الدوسة عملت لهم مقام.

شيخ الحارة– جعانين نعطى لهم لقمة جراية يسكتوا.

(المنظر الخامس، مشايخ الأزهر والضباط والتلامذه والورشجية (المرفوتين ومجدع وحدق وعمر شلهمة وأبو الخير)

مجدع– (يسلت سيفه ويقول لشيخ الحارة) طاله ترمح على فين يا فرعون؟

حدق– الأكياس دى والأوراق ثقيلة عليكم (يأخذها منهم ويعطيها للتلامذة والضباط).

عمر شهامة– آه يا غاير ياما عملت فينا.

أبو الخير– (يقول لشيخ الحارة) اقرأ هذا الفرمان من مولانا السلطان.

أبو الحلم– أنا نصحتك يا ابن الأخ من مدة سنة بجوابى فلو كنت سمعت كلامى كان البر انصلح وأنت فضلت عليه شيخ حارة ، إنما أنت خربته وهتكت اسم مصر وأهلها.

حدق– لما توليت يا فرعون البر ماكانش مديون، واليوم عليهماية مليون جنيه، المبالغ دى راحت فيه؟

مشايخ الأزهر– بنى بها سرايات وصرفها في الفسق والفساد.

عمر شهامة– وعوض ما يساعد الفلاح ويصلح أحوال الزراعة اللى هي سعادة أهالى القطر، فرعون بسلامته نهبنا وباع أطياننا ومواشينا وموتنا من الجوع.

مشايخ الأزهر– فرعون كافر وآخرته الجحيم ربنا كريم حليم..

أبو الخير– (إلى الضباط) تسليكم شيخ الحارة وأولاده ووزيره ، اذهبوا بهم إلى الإسكندرية ، وأنت يا جدع باشا سلمهم إلى قبطان مركبنا

العثمانية وهو يجرى اللازم (الضباط وحدق يفعلوا ذلك ويضربوا القواصة اللى يتجاسروا يعارضوهم).

شيخ الحارة– (يزعق ويقول) الحارة حارتى وأنا شيخها وأنتم مالكم ومالى؟

مشايخ الأزهر– جرجروه. ما تسمعوش كلامه.

(**الجميع يغنوا**)

أنـــت فـــين ياأبـــو نضـــاره	تيجـــيى تشـــوفنا منصـــورين
علـــى عمـــك شـــيخ الحـــارة	وعلـــــى أولاده المنحوســـــين
النهـــــارده يـــــوم عظـــــيم	افرحـــــوا يا أهـــــل النيـــــل
الله ينصــــر ســــى حلــــيم	ويعاقـــــــب إسماعيـــــــل

ويعود أبو نظارة فيستيقظ من هذا الحلم الذي تمناه للمصريين وتجابهه الحقيقة المرة بأنهم أضعف من أن يسلكوا تلك الطريق ، وأن النخوة تعوزهم لبلوغ هذا الأمل فيقول على لسان أبى خليل "أهل مصر كانت شجاعة في أيام الفراعنة ، أما اليوم ما يخرجش من يدهم يعملوا شئ زى ده لأنهم أخذوا على التنبله"!

وهكذا ينتهز يعقوب بن صنوع هذا القلق الذي أصاب الخديوى إسماعيل وهذه الاضطرابات التي أحاطت بعرشه ، فيجلى في الحملة عليه وعلى الفساد الذي أشاعه في البلاد ، وأساء به إلى الدين أيضاً كتصرفات الخديوى في أموال الأوقاف الخيرية التي كان ينبغى أن يرعاها بالذمة

والشرف "كلما يخرب منزل أو حانوت بدل تعميره جارى مبيعه والعقار والأطيان الموقوفة للجوامع وغيره اللى انهدمت في الشوارع ويزيد عددهم عن ما يتين أخذهم الفرعون ، فهذا هو السبب الوحيد لخراب الجوامع وتعطيل الشعائر الإسلامية.."

صورة رياض أو أبو ريضة أو الوزير المشخلع

ثم يعزل إسماعيل العدو اللدود ليعقوب بن صنوع، ويتولى الأريكة الخديوية ابنه توفيق، ولم يكن في ذلك تحقيق للرغبة الجامحة في قلب يعقوب ، فهذا بعض النصر وليس النصر كله ، أنه كان يريد أن ينفى إسماعيل من مصر ويتولى مكانه عمه الأمير حليم ، وهو لسانه في مصر أو في خارج مصر، بيد أن عزل إسماعيل لم يقض في نظره على المفاسد إذ احتفظ العهد الجديد بأدوات الحكم القديمة، وهى أدوات فاسدة يعلن عنها عن طريق خطاب تلقاه من الجيزة وفيه يقول صابحه "ربنا يخلصنا على خير من وكيلنا أحمد عصمت لأنه جايب لمديريتنا العمى. ده كان في المدة الماضية محسوب خلخال أغا شمعدان الست الكبيرة. والآن محسوب كمال أفندي، ومن حيث أنه لم يكتفى بالنهب والسلب السابق ، فهو دلوقتى بيعمل شغله في أكل أموال العالم بالباطل، وبينظم وبيهندس في مزروعاته، وفرعون الصغير ما استعناش يقرأ العرايض اللى قدمناها له ، بقى شوف لنا طريقة أنت يابو نضاره والسلام ، أنت ربنا بيقبل منك ، ولما دعيت على الأب سمع منك وريحنا منه ، فبالله يا وليد ادعى لنا على ابنه وخلصنا من شبكته اللى زى الزفت . عسى الحليم يحلم بحلمه..".

ولم يعدم بالطبع، إسماعيل قبل خلعه وتوفيق بعد تعيينه ، من ألسنة تهاجم الأمير حليماً الذي تعلق به كثير من أحرار المصريين ، وكانت تلك الألسنة تهاجمه بشدة في الصحف الأوربية ، وخاصة في الصحف الإنجليزية ، وقد استطاع دعاة الخديوى أن يؤثروا في تلك الصحف ، فخرجت بمقالات عنيفة صورت بها حليما نكرة لا عزوة له في مصر ، وقد رد أبو نظارة على تلك الصحف بمقالات ممتعة ، سل فيها الحق من الباطل ، وأشار إلى ذلك كله في أكثر من موضع في صحفه الكثار.

وليس يعنى هذا أن المترجم له كان يكره أن تستقر أمور مصر ويسودها العدل على يد توفيق ، وأنه كان يرحب بالأمير حليم أميراً عليها ولو فسد الحال وساء المال.. أنه مواطن شريف يؤثر حليماً بالكلمة الطيبة لأنه نفى من مصر وحُورب في رزقه عندما أوصى ابن أخيه إسماعيل بأن يخفف نهمه ويهذب من سلوكه ، فاستحق عند الأحرار المكانة المرموقة، ولقد كان يعقوب يتمنى أن يجد في السياسة الجديدة في عهد توفيق ما يصرفه عن خصومته، وهو ينشر مقالاً جاءه من مواطن مصرى فيه بعض الثناء على توفيق وفيه رجاء لمصر في العهد الجديد ، فإذا سئل في (المحاورة) عما إذا كان من سياسته نشر مثل هذا المديح رد على سائله قائلاً "معلوم لأن النضارة جريدة وطنية ماهش لا إسماعيلية ولا توفيقية ولا حليمية، فعلشان كده لازم ندرج فيها كل ما يخص الوطن".

ولكن أبا "خليل" يعترض على ذلك بأن الخطاب الذي سينشره– وقد نشره فعلاً– فيه مدح شديد ، وهل من العدل أن ينشر مثل هذا

المديح في شخص لا يستحقه فيجيبه ابن صنوع وفي إجابته تظهر وطنيته السليمة قائلاً "ياريت كان يستاهل المدح ده كنا نفرح، لأن نحن غاية منانا صلاح البر، إنما يظهر من الرسالة الواردة لنا من جمعية محبين الحرية أن الأحوال برضها على ما كانت في عهد فرعون وأذرط".

ويتأخر فرمان التولية، ويعرض أبو نظارة في صحيفته لهذا ولغيره من الشئون، ويذكر أن أمور البلاد لا تزال في يد إسماعيل يقضى فيها من بعيد بأسوأ ما تقضى به الأمور والأحكام. وأن المصريين جديرون بهذا الذل لأنهم ارتضوه وقبلوه ومكنوا له، فإذا عاب أحدهم في "المحاورة المنشورة" على المصريين بأنه كان يجب عليهم أن يفزعوا إلى دول أوروبا طالبين تعيين من يرضاه المواطنون، أجابهم ابن صنوع على لسان "الخطيب" بقوله "الكلام ده خليه لأهل أوروبا اللى حكامهم تحسب لهم حساب، أما أحنا حكامنا يضربونا ويأخذوا كرا ايدهم، أد إحنا شفنا عزل الأب وتولية الابن ولا تحركناش، ياريت بس كدا إلا كمان عملنا زينة، واللى ماكنش راضي يعلق على بابه قنديل كانت الكومسيون تعلق على خدوده أقلام"!

وإذا أشار أحد أعضاء المحاورة بالفزع إلى السلطان ليعزل الابن كما عزل الأب قال يعقوب على لسان الرئيس "السلطان ما بقت لوش سلطة على مصر، والربط في يد دول أوروبا ودول أوروبا وضعت الولد مؤقتاً، وبعدكم شهر إذا شافت أنه ماهوش فالح حالاً تشقلبه، فنحن نقدر نكتب لفرنسا وانجلترا ونعرفهم أن الحاكم اللى انتخبوه لنا أذرط من أبوه، وأنه يكره الناس العادلين، ونلتمس منهم بأن يخلونا نولى اللى يعجبنا، لأن إذا

استمرت الأحوال على ما هى اليوم. عمرها مصر ما تقيم رأسها، أهم بدءوا يوقفوا صرف الماهيات ، ومن يعرف رايح يجرى ايه في دفع الكوبون".

وإذا تبين يعقوب بن صنوع أن الأمل ضعيف في القضاء على توفيق كما قضى على إسماعيل، أخذ على عاتقه كشف نوايا الحاكم الجديد ، وأساليب التهريج التي كان يتبعها ، والتى اتبعها من قبله أبوه، وابتعها من بعده غيره من الخديويين والسلاطين والملوك ، ومن ذلك بيان العبث اللى كان يرتكبه توفيق في زيارات الجوامع والصلاة فيها! فيذكر في إحدى المحاورات أن رياضاً طلب أجازة يومين، فلم يوافق توفيق ورد عليه قائلاً "أنت بدك تخلى الشمطلى يطلى وأنا أفضل لوحدى هنا وأقبل زياراتى وزياراتك، والحال أن وراى أروح الجامع يومى أصلى، لأن بابا قال لى في تلغرافه الأخير، ادعى خوف الله وروح مراراً الجوامع، لأن ده شئ يعجب الرعاية، وأنت يابابا رياض تعرف أنى ما أصدقش في شئ، وأنى بزعل لما بروح في المحلات دى، لأن أبو نضارة قال أن ربنا ما يقبلشى دعاء الظالم".

وليس هناك أبلغ من هذه السخرية، أنه يسخر بذلك من الخديوى الذي يتزلف إلى الله كذباً ، والذي يختلف إلى بيوته الطاهرة من غير عقيدة ولا إيمان في قلبه ، وهو يعرض ذلك كله محملاً رياض باشا مغبة تلك الأعمال جميعاً ، جلت أوهانت والخصومة بين ابن صنوع وبين رياض قديمة متجددة ، وهو يذكر عنه أنه حاب لأقاربه وأنسابه يتخطى في الوظائف العامة أبناء السادة ولأكفاء، فيجرى على لسان (التلميذ نسيم) رأيه هذا

فيقول "هكذا وإلا بلاش، واحنا إذا كنا مانخدش حقنا قهراً عن شيخ الحارة وملاعينه مين يفكر فينا أو يخدمنا ، أهو رياض كمثل ما خدم البيكاوات قرايبه محمود وطه وفريد والأعمى وعثمان وأحمد الوزان، أهو الآن جعل زوج أخته الأغبش وكيل مديرية القليوبية والآخر وكيل المنوفية ومصطفى الغدادلى صهره ابن سودانية ناظر قلم دعاوى بالضابطية، وباقى قرايبه ومحاسيبه جارى تويفهم بماهيات ووظايف عالية، وأولاد الذوات وغيرهم من ذوى الشرف والاستعداد لم أحد يسأل عنهم".

لقد لقى رياض باشا من قلم ابن صنوع ما لم يلقه وزير مصرى آخر، وهو دائب على تسجيل مواقفه المزرية في شئون الحكم في عهد إسماعيل وولده توفيق، ومن الطرائف التي صورها لنا ما حدث في مجلس النواب بين رياض وبين الأعضاء حين أراد الوزير فض المجلس ، وهذه الرواية التى وراها أبو نظارة هى أدق وأصدق ما روته صحيفة أو كتاب في هذا الباب ، مما يحسن معه نشرها في هذه السطور، أنها محاورة أيضاً بين "أبي خليل وأبي نظارة".

أبو خليل– أنت أوعدتنا في آخر جورنالك بأنك تدرج مقالات المويلحى والعطار ومدح أبو شرف وبابا راغب، هات من تحايفك هات.

أبو نظارة– على العين والراس يا سيد الناس، لما حضر رياض إلى مجلس النواب وطلب انفضاضه أجابه محمود بك العطار– اسمع يابو خليل دا الكلام الموزون– يا سعادة الباشا كيف يصير انفضاض المجلس بدون أن

يعرض عليه شئ من إجراءات مجلس الوزراء وبدون أن يأتى أوان لعطلة؟ هو ده مكتب مسخرة فتحه وقفله بيدكم؟

أبو خليل– ما شاء الله على دا النفس، وصاحبنا عبد السلام بك المويلحى قال ايه؟

أبو نظارة– قال أنت يا أفندم أخبرت جملة متظلمين من أبناء الوطن الى كانوا طالبين حقوقهم بأن لهم نواب ينظرون في شأنهم، فكيف بدون أن ما ننظر في شئ تأمرنا جنابك بالانصراف، يعنى احنا عبيد أبوك؟ فإذا انصرفنا كما ترغب وسألتنا الأمة، وقالت يا نواب، ماذا فعلتم وأى فرده بطلتم وأى مظلوم خلصتم وأى مصيبة خففتم، يا هل ترى نجاوبهم مثلما حضرتك جاوبت أصحاب الجرايد أن لا لنا نواب ولا شورى، وليس فينا من يفهم وكلنا على جهل، لا نحسن الخطاب ولا ندرى الجواب ولا فينا عشرة أشخاص يفهمون عبارة ولا يدرون إشارة، مع علم سيادتك بأن إذا انفض المجلس على غير طايل فكن ميقن أن الأمة لا ريب تلقى المسئولية على الوزارة.

صورة شريف باشا أو أبو شرف!!

أبو خليل– يحرس ذا الفم، طيب وباقى الأعضاء قال ايه؟

أبو نظارة– صاحوا بأعلى صوت وقالوا تعيش الحرية.

أبو خليل– أما الجماعة اتجدعنوا وعملوا الواجب، بس أنا بستغرب ازاى سكتوا لهم؟

أبو نظارة– الجندى اليومين دول بعيد عنك.. [٣] في لباسه لعلمه أن شيخ التمن زعلان عليه وحلف يمين معظم بالله وبرسوله بأن يخلع عدو أمة مُحَمَّد ويولى محله المتصف بالحلم فعلى شان كده أبو السباع بيطنش..

وهكذا لم يخل عدد من التعليق على تصرفات رياض باشا حين كان وزيراً للداخلية أو رئيساً للحكومة، ومن التصرفات التي أقلقت بآل يعقوب بن صنوع هذا الإرهاب الذي شنه رياض على الصحف المصرية في أواخر سنة ١٨٧٩، فقد صادر صحفاً وأغلق صحفا، ويقول المترجم له "على شان جرنال فتاة مصر مع جرنال الميمون وجرنال التجارة ومصر الجارى طبعهم بإسكندرية تكلموا في صالح الوطن أصدر أمره بتعطيلهم ، وقد كان وجرى تعطيل الأربعة جرانيل المذكورين في أسبوع واحد...".

أن الضغط الذي لقيته صحافة مصر، لقيه أيضاً أبو نظارة من حكومة رياض، فقد صادرت صحيفته، الأمر الذي دعاه كما ذكرنا من قبل إلى تغيير اسمها حتى يتيسر إدخالها إلى مصر وقد حاول أن يصدر صحيفته الجديدة وإلى جانبها صحيفته القديمة.

ولكن ذلك تعذر عليه، فقد كان فوق مقدوره أن يوالى صحيفتين معاً سواء في تحريرهما أو في تمويلهما، غيرأن تغيير الاسم لا يعنى مطلقاً اختلافاً في السياسة ، بل أننا إذا أنصتنا إلى أى صحيفة جديدة فكأننا نقرأ أو نسمع إلى أبى نظارة زرقا أو إلى رحلة أبى نظارة الولى ، لذلك كان

---

[٣] منا لفظ نأنف من تسجيله.

اختفاء (أبى نظارة زرقا) أمراً لم يسئ إلى تاريخها قط فقد عادت بعد سنوات كما سنبين في فصول مقبلة، واحتل مكانها في تلك الفترة عدد من الصحف الأخرى، جرت على سياستها تمامص، وهى– أى تلك الصحف الجديدة التي سدت الفراغ– تعتبر في ذمة المؤرخ امتداداً لأبى نظارة زرقا، لذلك، يحسن دراستها على ضوء هذه الحقائق دون نظر إلى أى اعتبار آخر.

النظارات المصرية

كانت مجلة (النظارات المصرية) إحدى الفواصل التى قطعت على (أبى نظارة زرقا) سيرها، فقد احتلت مكانها جزءاً من السنة الرابعة لصدور صحف يعقوب بن صنوع، وأن كانت النظارات المصرية قد صدرت قبل اختفاء اسم المجلة الأصيلة، وأن كانت أيضاً تختلف معها في الحجم، فهى تشبه الكتب الصغيرة المعروفة، وأبو نظارة زرقا في حجم مجلاتنا المعاصرة التي تماثل روز اليوسف والجيل الجديد وما إليهما.

صدرت (النظارات المصرية) في ١٦ سبتمبر سنة ١٨٧٩، "جريدة تاريخية علمية تحرير مصر وإسكندرية" وقد أشار إلى قرب صدورها صاحبها يعقوب بن صنوع في العدد الثلاثين من صحيفته أبى نظارة زرقا وهي في عمومها تشابه من حيث التحرير والإنشاء صحف المترجم له الأخرى، غير أنها تختلف عنها في كثير من الموضوعات التي عالجتها كما أنها مطبوعة على الحجر بخط جميل، ويحتل صدرها دائماً رسم يمثل فكرة من الأفكار السياسية التي كانت تشغل بال الجماهير في تلك الأيام، وبعد صدور عدة أعداد منها، رأينا في الصفحة الأخيرة رسماً معيناً يسجل رأياً معيناً بالإضافة إلى الرسم الأصيل المنشور في الصفحة الأولى.

كان أول موضوع عالجته (النظارات المصرية) متصلاً في أكثره بإنشاء المجلة وأسباب هذا الإنشاء، وقد جاء هذا كله تحت عنوان "جلسة يوم الجمعة المبارك في محفل محبين الوطن تحت رئاسة أبى نظارة معظمة ،

والحاضرين الرئيس وكاتب اليد وأمين صندوق والخطيب والشاعر وجميع أعضاء الشركة" ويحسن ونحن نؤرخ لهذه المجلة، التي لم يطل عمرها إذ صدر منها عشرة أعداد فقط ، أن نسجل ما يعنينا "من جلسة يوم الجمعة المبارك" تلك ، ففيها إيضاح لسيرة الصحيفة ، وبيان واف عنها..

الرئيس– بسم الله الرحمن الرحيم، أهدنا الصراط المستقيم، واحفظنا من شر وزارة الواد اللئيم. اتلى علينا يا حضرة كاتب يدنا أخبارك المهمة.

كاتب اليد– سمعا وطاعة يا رئيسنا المحترم، ورد لنا خطاب ظريف من أستاذنا الجليل أبو نضارة زرقا وبه يفيدنا أنه اتفق مع الموسيوراجنو الطبيع بباريز على نشر جريدة النظارات المصرية التي نحن عازمين على تأليفها لتنوير أبناء وطننا العزيز وإرشادهم في سبيل الحرية ، فالمسيو راجنو قبل وعين للنسخ شخص على معرفة عظيمة في لغتنا العربية ، وتعهد بأن يطبع خمسة آلاف نسخة من كل عدد ويرسلها بطريقة حسنة إلى وكلانا للبيع..

الرئيس– أبو نظارة زرقا رجل لطيف ويستحق أفخر المدح لكونه يسعى دائماً فيما ينتج منه تهذيب وتنوير وشرف أولاد بلده..

أحد الأعضاء– أمال ليه بطل أو رايح يبطل نضارته؟

الرئيس– هو الله يحفظه قبل ارتحاله من ديارنا كان أوعد بنشر ثلاثين عدداً بصفة رحلة، فعندما انتهت الأعداد المذكورة جمعيتنا الشريفة التمست منه بأن يكتب ثلاثين نمرة أخرى، فامتثل لأوامرنا وفعل ذلك،

فالآن يجب علينا أن نتبع قدوته ونرفع عنه هذه المشقة، ونجاهد نحن مثله في ميدان الحرية وحب الوطن..

الخطيب– أبو نضارة زرقا اكتسب له اسم لا يموت بل يصير حى خالد بعد موته.. الشاعر–كما قال أحد شعرانا.

أخو العلم حى خالد بعد موته

وأوصاله تحت التراب رميم

وذو الجهل ميت وهو ماشى على الثرى

يعد من الأحياء وهو عديم

الخطيب– الله الله! ما أعذب هذه الأبيات! ربنا ما يحرمنا منك يا شيخ يوسف يا شفعاوى يا شاعرنا العزيز، أما إحنا يرجع مرجوعنا إلى أمر جرنالنا الجديد.

أمين الصندوق– أنا بناء على أمر رئيسنا المحترم أرسلت إلى الطبيع الدراهم اللازمة إلى طبع العدد الأول والثانى، وحين يصير بيعهم هنا وإسكندرية، جميع الأرباح التى تنتج من بعد المصاريف نفرقها على مساكينا الذين يومى في الزيادة لكثرة ظلم الحكام وجورهم.

كاتب اليد– جزاك الله خير يا أمين صندوق، وأنا أنسخ جميع المقالات والمحاورات التي يتلوها علينا أعضاء شركتنا الخيرية وأرسلها إليه، وأكتب خطاب لأستاذنا أبو نضارة زرقا وأترجاه بأنه يتفضل علينا ويكتب

لنا مخاطبة ظريفة يوضح لنا فيها رأى جرايد أوربا من ظلم فرعون الأكبر مدة تسلطه على برنا.

الخطيب– حضرة الشيخ يوسف الشفعاوى شاعر محفلنا الشريف مؤلف الرحلة المشهورة في تاريخ المطرود التي درجها في رحلته جمس أبو نظارة زرقا كتب مقامة عظيمة في هذا الموضوع..

الرئيس– سمعنا يا سيدنا مقامتك الظرفة!.

الشاعر– ولو أنها ليست في محلها، مع كل ذلك سمعا وطاعة.

وهكذا شرحت جلسة يوم الجمعة المبارك سياسة المجلة، وهي نفس السياسة التي عرفناها عن مجلاته الثلاث التي صدرت من قبل، ونجد في (النظارات المصرية) أيضاً نفس الموضوعات التي طرقت في أكثر من عدد من صفحه الأخرى فنقرأ "المقامة المصرية" التي جاء ذكرها في (الجلسة) ونرى تمثيلية لطيفة من عدة فصول ، وقعت حوادثها "في سوق السلاح بين زمزم بياعة عيش فارشة على الأرض، وابنها رضيع على يدها ، وديوس أغا قوص تحصيلات الفردة" وهي تعرض لنا صورة من قسوة الضرائب المفروضة على صغار الباعة ، وصف الموظفين وجبروتهم، وتدخل الأجانب في أخص مسائلنا، ثم يمضى المحرر فيقدم المحاورة التقليدية بين (أبو خليل وأبو نضارة) على طريقته المتبعة.

وإذا كنا قد لاحظنا أن صحف يعقوب قد هاجمت رياض باشا في أكثر من موضع ، فإن النظارات المصرية تعتبر صحيفة (تخصص) في الحملة

على ذلك الوزير المصري الذي تسميه "أبو ريضه" ويدخل في هذا التخصص أيضاً الوزير نوبار، وقدر أينا في أحد أعدادها محاورات خاصة بما نشرته جرائد أوروبا عن "الواد الأهبل والوزير نوبار ورياض" وفيها تعليقات شديدة اللهجة تجاوزت المفهوم في ذلك الزمان ، وخاصة تلك التعليقات التى جاءت في معرض التحدث عن "محفل محبين الوطن تحت رياسة أبي نظاره معظمه" وقد انفرد هذا العدد تقريباً بما أشرنا إليه وحسبنا هذا الحديث الطويل الممتع عن الخمسين ألف جنيه التي دفعت رشاوى في تركيا في سبيل الحصول على فرمان تولية توفيق للأريكة الخديوية، بينما الشعب المصرى يتضور جوعاً ويموت أبناؤه بالعشرات نتيجة البؤس والفاقة، وينوء أغنياؤه بالضرائب الباهظة التي أفسدت عليهم طعم الحياة.

ويصور يعقوب بن صنوع الخصومة التي بين رياض وبين الصحفيين الأحرار، ومدى العنف الذى اتبعه معهم ، حتى وصم عهده في شئونهم بأنه عهد المحنة التي لم تر لها مصر شبيها لا من قبل ولا من بعد ، فقد أغلق الصحف وصادرها ونفى كثيرين من الكتاب وأصحاب الجرائد في سنة ١٨٨٠ وفي مقدمتهم أديب أسحق صاحب جريدة (مصر) وهي جريدة وطنية أصدرها هذا الشاب معبرة عن رأى الحزب الوطنى ويقص علينا المترجم له قصة رياض مع أديب في "محاورة بين الواد المرق، ووزيره المشخلع" ومفهوم أن "المرق" هنا هو الخديوى توفيق ، الذي اعترض على رياض في أحد الموضوعات فقال:

الوزير- يظهر أنك أطلعت على جورنال مصر اللى قفلناه هنا وفتحوه في باريز، ماتسمعش كلام الواد أديب، ده رجل طويل اللسان يعرف له كلمتين ثلاثة نحو يتباهى بهم.. ياريتك سمعت شورتى كنا سقيناه[٤] وخلصنا منه ومن شبكته هو الثاني، لأن مع الشبان اللى من اللعينة الخبيثة دى اللى تتجاسر وتحكى في حق أسيادها ، المعروف ما ينفعش ولا يجوش إلى بالمتلوف.

الواد- طيب ونسكت العفريت ده ازاي كمان؟

الوزير- إذا سمعت شورتى وخلصت على أبو شرف وبابا راغب وعمر لطفى وعزمى وثابت وحيدر وشاهين والمفتى والبكرى اللى جميعهم أعداك وما يلين لعم أبوك ، يسكت أديب القبيح، لأنه هو رايد لهم ومحسوبهم، وفي الواقع أحنا ماجناش قدر لسانه.. كلب ينتش لحمه، أسكت يا أفندينا أنا منغاظ من الجدع ده والى يحكمى عليه أقطم زمارة حلقه لأنه هو اللى بيهيج العالم علينا بكلامه اللى زى الرصاص..

وحقاً لم يكن توفيق ولا رياض بكفئين للأديب الكاتب أديب اسحق، فقد أصدر في باريس جريدته باسم (مصر القاهرة) نشر فيها عدة مقالات، تعتبر في ذمة التاريخ من الروائع التي كتبها صحفى في جريدة سيارة، وكانت تلك المقالات تعبر عن أمانى الحزب الوطنى وأحرار البلاد، وفي مقدمتهم شريف باشا وأنصاره من الديمقراطيين.

---

(٤) يقصد سقيناه القهوة المسمومة.

ولا تعنى الحملة على توفيق ورياض وغيرهم من أصحاب الشأن أن ابن صنوع قد انصرف عن إسماعيل، فذلك أمر لا يستقيم مع طبيعة الصحفى المجاهد الذى لا ينسى الإساءة، والذي هاجر ليوظف قلمه في فضح سيرة الخديوى، وقد قرأنا له في هذا المعنى لونا جديداً لم يلجأ إليه من قبل، حمل فيه على إسماعيل وعرض لحياته في إيطاليا ، وهي صورة لطيفة جاءت تحت عنوان (الإصحاح الأول) ننقل منها فقرات من الصفحات الست التي استغرقها هذا الموضوع.

أرميا- كيف جاليس في نابولي لوحده الأمير؟

أبو نظارة- لأن الناس الطاهرة تبعد عن الخنزير.

أرميا- من يسكن الآن في سراياتك الفاخرة يا فرعون؟

أبو نظارة- الفيران لأن بنبيعها في المزاد لدفع الديون.

أرميا- كيف صبح الخديوى الجليل أذل الأمراء؟

أبو نظارة- لكونه استهزأ بالملوك والوزراء.

أرميا- يبكى إسماعيل في الليل ودموعه على خده.

أبو نظارة- نعم ومن غيظه.. (٥) روحه بيده.

أرميا- ما فضل له معز من محبينه.

---

(٥) هنا لفظ يعف القلم عن تسجيله.

أبو نظارة– لكونه ظلم شعبه وكفر في دينه.

أرميا– في يوم الضيق أصحابه تبروا عنه وفاتوه.

أبو نظارة– من خوفهم لكونهم في هلاك العالم ساعدوه.

أرميا– ارحم يارب وأفرج على إسماعيل.

أبو نظارة– الله لا يرحم من خرب وادي النيل.

أرميا– صبحت الجيزة والجزيرة والعباسية وعابدين.

أبو نظارة– نايحة على اللى بناها من دمنا فرعون اللعين.

أرميا– عيب على أهل مصر تفرح وترقص في الطريق.

أبو نظارة– معلوم تفرح في سقوط وطرد قاتل الصديق.

أرميا– صبحت سراريه مزلات وهي في مرارة.

أبو نظارة– بلا هلس، دى قالت له في داهية يا شيخ الحارة.

أرميا– ليلاً ونهاراً يتندب عليه السرارى الجمالات.

أبو نظارة– الوالدة باعتهم وبينبسطوا عند العايقات، ومن وقتها في مصرنا زاد، بين الشبان السكر والفساد، وألطف جدعان دمياط ورشيد وإسكندرية ، نزلت على.. [٦] وصرفت من الجنيهات بالميه ، وشافت لها

---

(٦) هنا لفظ لا يمكن نشره.

المفاسيد في مصرنا يوم، نزلت مع سرارى فرعون في بحر المحبة عوم ، والكم صبيه اللى أخذها معه فرعون، لتسليه على همه ف يبلاد الماكورن، بيخطفوها منه في نابلى الجدعان، رغما عن أنفه وأنف الخصيان، ولسه ياما يشوف من الهوان إسماعيل، ربنا يعاقب الظالم إنما باله طويل.

وهكذا يستمر الكاتب مؤرخاً لإسماعيل وسيرته في مصر وإيطاليا في هذا (الإصحاح) الطريف! ويستطيع قارئ هذا الفصل الممتع أن يدرس تاريخ الخديوى الخاص بتفاصيله وما خفى منها كما أنه صور لنا لونا من الألوان الحياة الاجتماعية التي عاشتها مصر في عهده ، سواء اتصل ذلك بالبيت المالك أو اتصل بعامة الناس ، فقد شرح لنا كثيراً من مفاسد العصر ، موضحاً الانهيار في النظام الاجتماعى الذي أصاب الحاكم والمحكوم على السواء.

وقد تفردت مجلة (النظارات المصرية) بهذا اللون من الحوار الغريب في "أسماء" أصحابه وفي سجعه، بل لعلها كانت أول صفحه التي نشرت حواراً مسجوعاً، هذا إلى تميزها عن الصحف الثلاث الأولى بنشر أخبار قصيرة عن الحالة المالية والاجتماعية والسياسية والخلقية في مصر، وكلها تنعى المفاسد التى يرتكبها الخديو توفيق وأنصاره من عمد ومشايخ ومديرين ووزراء، وعلى رأسهم خصم أبى نظارة الأول رياض باشا أو (أبو ريضه) كما تسميه.

وقد اتهم يعقوب بن صنوع منذ نفى من مصر بأنه صنيعة البرنس حليم الذي كان يدعو له ويرجو أن يعين أميراً على البلاد، وقد رأينا في

(النظارات المصرية) نفياً لهذه الشائعات التي أطلقها أعوان توفيق، وقد ذكر أن (الواد الأهبل) أى توفيق، بعث إليه يطلب عودته إلى مصر عارضاً عرضاً مجزياً من الناحيتين الأدبية والمادية "إنما أنا ماقبلتش لعلمى أن الابن أذرط من الأب" ثم يبين في حديثه سخف الشائعة التي تزعم أن حليماً أمده بالمال، وهذا أمر متعذر لأن "إسماعيل ماخلاش أموال عند حليم باشا ينفق بها على محررين جرانيل مثلنا" ويبين أن المال الذي يحتاج إليه يحصل عليه بعرق الجبين "إذ لنا صنايع بنربح منها ونصرف على جرايدنا وهذا لكثرة محبتنا في استقلال وطننا.. فأنا صنعتى خوجة السن، ولله الحمد لى في باريز تلامذه عديدة، وبكتب في جرائد انكليزية وفرنساوية ونمساوية وإيطالية ولى عليهم مرتبات أيضاً، فهكذا أنا مبسوط ولست مفتقراً لمساعدة أحد.." وهذا إعلان صريح وجبت إذاعته رداً على خصوم المواطن المنفى، وقد اختار له النظارات المصرية، فانفردت ب دون صحفه الأخرى.

وقصاوى القول في (النظارات المصرية) إنها تكاد بحجمها وموضوعاتها، تنحرف كثيراً عن صحف يعقوب بن صنوع الأخرى، حتى أنه ذكر على أعدادها "الألسنة الأولى" وكان المفروض أن تكون السنة الرابعة في سيرة مجلاته المختلفة، لأنه حين أبطل أصدارها ونشر "أبو صفارة" ذكر على الأخيرة (السنة الرابعة) كأن أبا صفارة وصل ما ناقطع من أبى نظارة زرقا، وليست صحيفة جديدة كالنظارات المصرية، وهي أى– أبو صفارة– ليست جديدة في شئ يتصل بالشكل أو الموضوع كما سنرى في الفصل التالى..

أبو صفارة..

هي وصل ما انقطع من مجلى أبي نظارة زرقا، وهي تكملة لها وصورة مطابقة في الشكل والموضوع. صدرت (أبو صفارة) في السنة الرابعة من تاريخ صحف يعقوب بن صنوع ولم ينشر منها إلا ثلاثة أعداد فقط، ثم أمرت الحكومة المصرية بمصادرتها، وتعذر عليه متابعة إخراجها بهذا الاسم، كما أشرنا إلى ذلك في أكثر من موضع، وهي كما يقول محررها "جريدة هزلية أسبوعية لانباسط الشبان المصرية، يحفظهم رب البرية من المظالم الفرعونية، منشئها محب الاستقلال والحرية".

صدر العدد الأول من (أبو صفارة) في ٤ يونية سنة ١٨٨٠، أى بعد اختفاء (النظارات المصرية) بنحو ثلاثة أشهر، وقد ذكر لنا يعقوب أسباب مصادرة وإغلاق صحيفته "النظارات المصرية" ذكرها باسم غريب، قال أنها (الغدارات المصرية) وكان في وسعنا أن نعتبر ذلك خطأ في النقل لولا أن الاسم تكرر في أكثر من موضع، حتى أنه أطلق على اسم صحفه (الغدارات) و(الغدارة الزرقاء) ويحدثنا عن آخر عدد من النظارات المصرية على لسان مدير البوسطة "... إنما هو يكون فرق الجرانيل- على جميع سكان وادي النيل- والعدد العاشر من الغدارات المصرية- اللى أمرنا بتعطيله لكون علهي صورة حليم- فرقوا يعنى باعوا منه عشرة آلاف وخمسمية.." ولم تنشر لحليم صورة إلا في صدر العدد العاشر من النظارات المصرية.

ومما يؤكد وجهة نظرنا في أن يعقوبا إنما يعنى (بالغدارات) صحفه المختلفة قوله "أنا صار لى ثلاث سنوات- بقول لكم يا أخواني وأعي- في الغدارة الزرقاء وفي الغدارت.." ثم يقول في مكان آخر عن شعور مواطنيه حين ترامى إليهم مصادرة النظارات المصرية وإغلاقها "واحنا يا شيخ كنا في غاية القلق عليك، وكان اللى يضر بنا بالفولة نطق، لما شفنا في الجرانيل المحلية أن الغدارات المصرية صار تعطيلها.. وفى الواقع ولو أنهم عطلوا الغدارات بعد العدد التاسع- أنت ماخيبتش أملنا وبرضك نشرت العدد العاشر ورسمت عليه صورة حبيبنا أبو الحلم الشريفة، وأرسلت لنا منها آلافات من النسخ.. وحصل لنا غاية الفرح والسرور بمطالعتها لكونها مبشرة بخلع الواد الأهبل وأبو ريضه اللعين.." وهذه هى محتويات العدد العاشر من النظارات المصرية التي طبعت وفي صدرها صورة حليم وفي طياتها حديث عن أماني يعقوب في عزل توفيق..

لويس صابونـجى وكان في مقدمة من كتب في صحف يعقوب بن صنوع

وقصارى القول في هذه الأعداد الثلاثة من (أبو صفارة) أنها مضت على سجية مجلات المترجم له الأولى، ليس فيها جديد لا في صورها ولا في موضوعاتها، غير أنها اشتملت موضوعاتها، غير أنها اشتملت على اتفاق مع صحفى معروف وخلاف مع صحفى كبير آخر، أما الاتفاق والإعجاب فيتصلان بالقس لويس صابونجى صاحب مجلة النحلة التي كانت تصدر في لندن إذ ذاك فقد نشر صابونجى مقالاً باللغة الإنجليزية أرضى يعقوب بن صنوع فأشاد بالمقال وصاحبه، وكتب يقول "ومن أراد منكم يقرأها يا

أخوان- فيجدها مترجمة بالعربى بأفصح لسان- في جريدة النحلة عدوة الكسل- اللى كلامها أحلى من العسل- ومحررها بلندره الفاضل سيدى الصابونجى اللطيف- فلكونه صابونجى كلامه نقى ونظيف- وجرناله مملوء من مواعظ وحكم فريدة- ومقالات في الآداب والعلوم والفنون مفيدة- ترشد القارئ في طريق التمدن والكمال- وتطرب الشاعر لكونها عذبة لذيذة الأقوال- حفظ البارى من كل شر منشيها- وطرح الله لنا البركة فيها".

بهذا الأسلوب الرقيق، وبهذه المشاعر الدقيقة أكرم كاتبنا زميله في لندن، لأنه دأب على نصرة القضية المصرية والدفاع عنها في شتى المناسبات، أما الصحفى الآخر الذي حمل عليه يعقوب حملة شعواء فهو واحد من أعلام الصحافة العربية الذين لا ينكر فضلهم، هو أحمد فارس الشدياق صاحب جريدة (الجوانب) كبرى صحف الشرق العربية التي كانت تصدر في الآستانة، وقد كان الشدياق صديقاً للخديوى إسماعيل وأبى أن ينشر مقالاً رسمياً من الحكومة التركية يتضمن الإساءة إلى صديقه، فعطلت صحيفته لذلك عدة شهور.

وقد دأب الشدياق على تحية ابن صديقه خديوى مصر توفيق في صحيفة (الجوائب) فنشر له يعقوب بن صنوع كتاباً مفتوحاً بعنوان (نم أبى صفارة بباريس إلى حضرة محرر الجوائب بالآستانة) جاء فيه "بالله عليك يا شيخي يابو لحية بيضاء محترمة تفضك من كتابة مقالات لا ينتج لشرفك منها إلا العار والاحتقار- أنت بسم الله ما شاء الله رجل عالم وفاضل،

وأخو العلم حبيب الحق وعدو الباطل، فكيف تحط الساق على الساق وتنجس قلمك بتحرير أقوال في مدح من لا يليق– مثل رياض وتوفيق؟ ده كلام عيب يا سى الشيخ، وما حدش من زملائك يرضى به خصوصاً داعيك اللى يوقرك ويعرف مقامك– أهو باقول لك النوبة دى بالمعروف يعنى بالتى هى أحسن، وإذا ما قبلتش النصيحة والله ألتزم أدرج في جرنالي القادم جميع مقالات أبناء مصر في حقك يا فارس، وبقى من غير مؤاخذة هتيكة وجرسة.." ثم لا يكتفى أبو نظارة بتهديد الشدياق بل ينشر مقالاً مقذعاً فيه، استغرق صفحة كاملة، معتذرا بأنه اضطر إلى نشره لأن صاحبه "أقسم بشرف والد وجد يعقوب" أن ينشر بمجرد وصوله.

واحتوى العددان الثاني والثالث حديثاً رائعاً عن "سي موسى العقاد والضابطان أمام الواد الأهبل ووزيره" وهو يقص في هذين العددين ما صنعته الحكومة مع موسى العقاد الوطنى المصري المعروف، ومدى الظلم الذي أوقعته به وبمجموعة من ضباط الجيش، ويعرض لنا دور رياض باشا في هذه المأساة، سواء بالألفاظ أو بالرسوم، في أسلوب غاية في العنف والشدة، الأمر الذي ترتب عليه منعها من الدخول إلى الديار المصرية، وفي ذلك يقول أبو نظارة "..قلت ياربى نور عقلى وفهمى، وانصرنى على الواد الأمرد مصطفى فهمى، اللى أمر بتعطيل صفارتى البهية، العزيزة عند الشبان المصرية، فأجابنى من السماء سيدنا جبريل، وقال لى يا حبيب وادى النيل إعلم أن أبو ريضة العين والواد، ولما قرءوا الثلاثة أعداد، اللى نشرتهم في الصفارة، طلع الدم في رأسهم وعملوا غارة.. فحالاً وأمر يرف للبوسطة الفرنساوية بحجز العدد الثالث من الصفارة المحمية، إنما سعادة

مدير البوسطة كان من زمان فرقها، ووكيلى أوغسطيني على الزبائن وزعها، فأرسل من وقتها من غيظة ناظر الخارجية، صورة الدكريتو للجرائد المحلية، وبه يقول أن من حيث جرنال أبو صفارة، هو من تحرير الشيخ أبو نضاره، فلزم منع دخوله في الديار المصرية لأنه ضد الحكومة ومهيج الرعية.."

وقد كان يعقوب عنيفاً حقاً في حملته على الخديوى وحكومته، غير أنه كتب في موسى العقاد خير ما كتب في مواطن يستحق تقدير وطنه ، وقد استغرق مدح العقاد الصفحة الأولى ومعظم الصفحة الثانية من العدد الثانى.

وقد جاء في هذا المقال "أول كل شئ يا حبيبي يا مصري، يا نور عيني يا فريد عصري، يا فخر أبناء الشرق أجمعين، أهنيك على عدم خوفك من الظالمين، وهم الواد الأهبل الرذيل، ووزيره عدو وادى النيل.. ياما حصل لي انشراح وسرور، حينما بلغنى أن سى موسي المشهور، الرجل الحر حبيب الحق، خلى أبو ريضه من الغيظ يطق.. والله عفارم عليك يا عقاد، ما تخافشي من أبو ريضة والواد، دول هوانم ما همش رجال، ويظهر من فعليهم أنهم أندال، لأنه لو كانوا صحيح حكام ما كانوش يهجموا عليك في الظلام، ويهينوك يا سيدي يا شريف، إنما برضه ربك حليم لطيف، ينجيك من أيدى هؤلاء الكلاب، وللنصر يفتح لك ألف باب".

ثم يبلغ الثناء على العقاد أقصاه، وذلك في قوله "انت استمر على دا الشهامة والجداعة وكن ميقناً يا حبيب، أن الفرج جاي من قريب، ما عليهشي أنت تحمل جور الظالمين، يلطف يا أبناء مصر رب العالمين، دى

جميع الجرانيل الفرنجية، كتبت في حقك مقالات مدحية، ومن جملة ما قالت هؤلاء الجرانيل، قالت أن موسى الأول كليم الله نجا أبناء إسرائيل نم المظالم الفرعونية، وموسى الثاني سوف يخلص الديار المصرية.."."

وهكذا سار أبو نظارة على هذا الدرب في معالجة الشئون السياسة، وبيان قيم الرجال، يهجو خصومه أحياناً هجاءً خلا من العفة ونزل إلى الحضيض في المعانى والعبارات حتى ليصدمنا ذلك، فنأبى تسجيل في مطبوع، ويمدح أصدقائه فيغلو في ذلك غلواً يشكك في قدر الثناء، غير أنه في الحالين يترك لنا تفسيراً للحوادث وتصويراً للأشخاص، لا يمكن أن نغض الطرف عن نواحى الصدق فيهما ونحن نفسر التاريخ على ضوء الوثائق الشعبية ، وأبو نظارة وثيقة شعبية جديرة بالنظر والاعتبار.

أبو زمارة..

أبو زمارة هى إحدى مجلات الضرورة، أن صح التعبير، الضرورة التي فرضت على يقعوب بن صنوع أن يغير في أسماء صحفه ليستطيع إدخالها إلى مصر، وأبو زمارة من حيث الشكل والموضوع صورة مطابقة لأبى صفارة وامتداد لأبى نظارة زرقاء مع اختلاف في الرسوم والأشكال، ولكنه اختلاف يسير، ولولا تغيير الاسم لعز التفريق بين الصحيفة باسمها الأصيل أو باسمها الدخيل، وقد التزم المحرر في عددها الأول، الأقوال العامية المسجوعة كما كانت الحال في الصحف الصغيرة التي أصدرها تحايلاً على الحكومة وعيونها..

وتضمنت الافتتاحية بيانات طريقة ننشرها كاملة، "بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أنبيائه أجمعين، أما بعد فيقول العبد الحثير أبو زمارة. لما بلغنى بأن صدار أمر من ناظر الخارجية، بقفش وكسر الصفارة، الساعية في استحصال التمدن والحرية، قلت ياربى نور عقلى وفهمى، وانصرنى على الواد الأمرد مصطفي فهمي، اللى أمر بتعطيل صفارتى البهية، العزيزة عند الشبان المصرية، فأجابنى من السماء سيدنا جبريل، وقال لى يا حبيب وادى النيل أعلم أن أبو ريضة اللعين والواد. لما قرأوا الثلاثة أعداد اللى نشرتهم في الصفارة، طلع الدم في رأسهم وعملوا عليهم غارة. وبعتوا ندهوا الواد مصطفي، وبالأقلام ورموا له الخد والقفا. وقالوا له شابرق شابرق فارتعش فهمي.. (٧) في لباسه. وخاف من الظالمين على فقد رأسه، فحالاً وأمر يرف للبوسطه الفرنساوية، لحجز العدد الثالث من الصفاة المحمية، إنما سعادة مدير البوسطة كان من زمان فرقها، ووكيلى أوغسطيني على الزباين وزعها، فأرسل من وقتها من غيظة ناظر الخارجية، صورة الديكريتو للجرائد المحلية، وبه يقول أن من حيث جرنال أبو صفارة، هو تحرير الشيخ أبو نضارة، فيلزم منع دخوله في الديار المصرية، لأنه ضد الحكومة ومهيج الرعية، فتأسفوا أبناء مصر أجمعين. وظنوا أن علينا انتصر الظالمين، إنما فشروا والله العظيم..".

غير أنه يعلق على ذلك بقوله ".. برضنا أحنا نغيظهم بجاه الحليم العليم، وبننزل السوق ونشترى لنا قطعة زمارة، في الصوت والطرب تفوق

---

(٧) هنا لفظ استقناء لسبب لا يخفى على القارئ!!..

الصفارة، ونزمر فيها أدوار عجيبة، تنحمق من سمعها الحضرة الكئيبة.. وبمطالعته يسلى أحبابه على همهم، وينسيهم كربهم وغمهم" ثم يعتذر المحرر لقرائه بأنه سيستعمل في التعبير عن أفكاره "العربى الدارج الصريح المستعمل عند الخاص والعام، بين أبناء مصر الكرام" وهو يذكر الموضوعات والمحاورات التي سينشرها وهي على النهج القديم، ثم يقول أن مواطنيه طلبوا إليه "أن فضلت في جرنالك حتة بيضاء ، شك لنا فيها سيرة الواد وأبو ريضه.." غير أن الكاتب يطلب من مواطنيه مساعدته في تحرير، أبو زمارة، "وأن حد فيكم تفضل علينا بقصيدة، أو بمقالة عظيمة حميدة، في حق رياض والواد وفلسن، نقول له ألف بركات ورسن..".

وهكذا حقق يعقوب في الأعداد الثلاثة التي طبعت من هذه الصحيفة سياسته التى وعد بها، وقد خص الخديوى توفيق بنقده العنيف الساخر المتصل، وشرح– فيما شرح– موقفه من أبيه وقبض يده عنه، واعتبر ذل ذلةً لا تليق بكريم "فأن قلتوا لى أن المطرود يستاهل ده كله، أجاوبكم أن يكفيه عزله وزله، إنما ابنه اللى اشترى له الوراثة بملايين ماكانش لازم يعامله كالأجنبيين، أنا مش قصدى أحامى عن المطرود إنما مرادى أوريكم خساسة المولود، بقى اللى ماله خير في أبوه وعائلته، كيف يكون له خير في وطنه ورعيته، أخص عليك يا واد يا فردريك، والله خسارة الخديوية فيك".

ويحدثنا في العدد الثانى من (أبو زمارة) عن وصول العدد الأول واستقبال رياض باشا له، وهو حديث ممتع طريف، غير أنه لا ينشر لكثرة

ما فيه من عبارات لا تليق بأن تكون في مطبوع، إلا أنه يؤمن إلى أن الصحيفة كانت في كل يد بالرغم من الحكومة وعيونها، كما يتميز العدد الثاني من (أبو زمارة) بكثرة المراسلات التي جاءت إلى المحرر من مصر، وهي في معظمها ركيكة العبارة، فلا هى عربية ولا هى عامية، كما أن موضوعاتها في عمومها تافهة لا تستحق النشر أو التعليق..

ويمتاز العدد الثالث وهو الأخير من (أبو زمارة) بأن المحرر قد ضاق ذرعاً بمواطنيه وتكاسلهم عن أداء واجبهم نحو التخلص من الخديوى توفيق ، وأجرى ذلك على لسان "الحدق" فقال "أهو حاول المسكين أربع سنين كأنه بينفخ في قربة مقطوعة والعالم بيتعجب وتقول يا ترى بيجيب الكلام ده كله منين؟ أحنا بس نعرف نقرأ جرانيله ونقول الله الله يا كلام حلو، يا أفكار عجيبة وما أشبه.." ثم يقول يعقوب على لسان (الحدق) مرة أخرى، أنه خطب وسط حشد من خاصة الفرنسيين مبيناً جور توفيق وجبروته وظلمه لرعيته، حتى بكى من فرط التأثر، فإذا ترك منبر الخطابة، سأله البعض، "إن كان الأمر هكذا، الأهالي ساكتة ليه. وليه بتعمل زفة وزينة في يوم عيد الواد..؟ بقى لازم يكونوا أولاد مصر أندال والاندال ما يستحقوشي أن محبين الشرق والحرية يساعدوهم"!

وهكذا يزحم يعقوب بن صنوع صحيفته (أبو زمارة) بشكوى مرة من تهاون مواطنيه في طلب حقوقهم المشروعة، والسعى لإعلاء كلمة الحق والحرية، وسوف نرى على مر السنين أن هذه الشكوى كانت متصلة

وقوية، لأن القوم رضوا الذل جيلاً بعد جيل، ولم يفرغوا منه بالرغم من جهاد الأحرار في مصر وخارج مصر سنوات وسنوات.

وهو دائب السعى في الحملة على رياض باشا أو "أبو ريضه" كما يسميه، محمساً مواطنيه كى يقضوا على عيون هذا الوزير الذين أفسدوا ذمم الناس وأخلاقهم، وملأوا النفوس رعباً وخوفاً، وقد بين ذلك كله في محاورة بين "الحدق ومجدع في حديقة الأزبكية" وننشر طرفاً منها هنا كخاتمة توضح ما كانت تسعى إليه (الزمارة) عند قرائها العديدين.

مجدع– أن كنت صحيح حدق وبتفهم الصورة ايه، قل لى آمال أمته الأمور تنصلح والأحوال تتعدل، لأن الكيفية إذا استمرت على ما هي الناس عليه قول عليها عدمت والسلام، لأن ذوات وأعيان ووجوع العاصمة المصرية ما بيتيسرشي لأحد منهم أنه يروح يطل على صاحبه، وده كله من كثرة أولاد.. البصاصين المفترين الساعين في قفل بيوت العالم وسبب الهلاك ده كله يكون أبو ريضه لأنه حلف بأبوه الوزان أن يخرب ويحبس الناس الأبرياء خذاه الله..

الحدق– وأنت التانى أن كنت مجدع صحيح كنت مع كم من أخواتك تزنق كم بصاص[٨] من دول وترقعهم علقة بنت هرمه كانوا يحرموا، إنما أنت وأصحابك خسارة اسم مجدع فيكم، بس تعرفوا تتكلموا في الهوا..

---

[٨] يقصد المخبرين.

وهكذا يمضى يعقوب بن صنوع على سجيته في نشر المحاورات في الزماة كما نشرها في غيرها من صحفه منذ أنشأ تلك الصحف إلى يوم قضى، لاهوادة في خصومة من خاصمهم. ولا تراجع في إيمانه بمن وثق منهم، صنعة الكاتب الأبى النزيه، والصحفى النادر المثال في تاريخ عز فيه قرين لذلك الكاتب المناضل، وقل من يقف إلى جانبه في صفوف الأحرار.

الحاوى..

وهذه مجلة أخرى من مجلات الضرورة، الحاوى... قد صدرت عدة أعداد، كل خمسة عشر يوماً تصدر نسخة منها، وقد جرت في سياستها ومزاجها على النهج الذي نشأ عليه أبو نظارة في صحفه المختلفة، ويلاحظ أنه لم يغير من مجلات الضرورة تلك إلا أسماءها ورؤوس الصفحة الأولى فيها حتى تستخفى معالم الروح وراء الرسوم والأشكال، ولا تفطن عيون الحكومة المصرية إليها، وأن لم يغير سنوات الصدور التي سجلت على تلك الرؤوس، فالحاوى صدرت في السنة الخامسة من حياة صحفه الكثار، وأن كان نصيبها في رسالة الرجل عدة أسابيع..

صدرت "الحاوى الكاوى اللى يطلع من البحر الداوى عجايب النكت للكسلات والغاوى ويرمى الغشاش في الجب الهاوى" يوم الجمعة ٥ فبراير سنة ١٨٨١، وقد سبقت صدورها كراسة صغيرة الحجم سميت (مقدمة الحاوى) وهي في مائة واثنتين وعشرين صفحة، تضمنت كثيراً من الموضوعات المختلفة، فقرأنا فصلاً عن مجلة (الحاوى) بلهجة الشاميين زاخراً بفضائح الحكم في مصر، وفصولاً أخرى عن السياسة الخارجية التي

لها اتصال مباشر بالسياسة المصرية، ثم عرض الكاتب "مخاطبات" بينه وبين تونسيين، وهي من الطرائف الجديدة في صحفه الطارئة، ثم عنى في هذه المقدمة، ولعلها المرة الأولى، بأمور تونس، ولعل أسباب ذلك ترجع إلى الصلات التي بدأ يقيمها المترجم له من باى تونس ومع غيره من أمراء الشرق، كما ستفصح عن ذلك صحفه في مستقبل الأيام، وقد أكد هذا الفصل الممتع الذي نشره في تعريب الألفاظ التونسية الظريفة، هذا إلى مجموعة ضخمة من الأخبار المتفرقة عن شئون مصر الداخلية كتعيين المديرين والمحافظين وما إلى ذلك.

وقد طبعت هذه المقدمة في كراسة من الحجم الصغير، ولم يشر صاحبها إلى أسباب طبعها، كما لم يذكر في أعطافها موعد صدورها، ولم يعرف أن كانت هذه المقدمة قد نشرت أجزاء أو طبعت جملة، فإنه لم يرقمها، غير أنها كتبت بعدة خطوط وطبعت على الحجر، وكان أسلوبها في كثير من صفحاتها أسلوباً عربياً صحيحاً، وأن غلب عليه طابع الكاتب الساخر والممثل الأصيل..

وتتضمن الصفحات الأولى من (مقدمة الحاوى) الأهداف التي صدرت لتحقيقها المجلة نفسها، فيقول الكاتب "أول امبارح ورد لى من الحدق جواب.. وقال لى فيه يا حاوى طلع من الجراب.. فتأملت في قوله وفهمت الكلام.. وحالاً نشرت الحاوى لسادتى الكرام.. ودرجت فيه حوادث برنا الكريم.. وذكرت فيه اسم حبيبكم الحليم.. وزينته بأخبار

الأمم الأفرنجية.. المتمعتين بالسعادة والحرية..".. إلى أن يقول: "بقى كل شهر مرة بيصدر الحاوى، ويخاطب الأحباب بالعربى مش بالفرنساوي.."ـ.

وقد عنيت (مقدمة الحاوى) عناية ملحوظة بحوادث الخارج وأن كانت قد دأبت على روايتها رابطة بينها وبين حوادث مصر فهو يحدثنا مثلاً عن المؤامرة التي تسعى إلى تنفيذها ألمانيا ضد فرنسا والجهد الذي تبذله للإيقاع بين إيطاليا وبين وطنه الثانى، فيقول: ".. عمنا بنزرط "بسمارك" الثعلبى البروسيانى، لما شاف أن جمهورية فرنسا المعظمة كلما لها لله الحمد في التقدم والثروة والنجاح رايح بعيد عنك يطق من الغيظ، وقاعد يبحث لها ليلاً ونهاراً على مشكل يعنى خناقة من تحت رجلين الفراخ، فأراد يرمى فتنة بينها وبين دولة إيطاليا المحمية، ويجعل مملكة تونس سلم، إنما الباي الذكي اللى يفهم الصورة ايه، ما هوش مثل الولد الأهبل تور الله في برسيمه فهم العبارة وفقس ملعوب بنزرط وراضى الفريقين وفض المشكل، والله جدع وبنزرط طلع قفاه يقمر عيش..".

فإذا انتقلنا إلى مجلة الحاوى نفسها وجدنا روحاً في علاج الموضوعات تختلف عن المقدمة بعض الشيئ، غير أن مجلة الحاوى تأخرت شهراً عن الصدور لأسباب خارجة عن مقدور صاحبها "اصحوا تصدقوا يا سادة من قال– أن صاحبكم الحاوى مات أو خرسوه الظالمون بالمال– لعدم ظهوره في الشهر اللى فات– الحاوى صاحب شرف يا خلان– وكان يصدر جرناله لو لم يكن عيان– إنما الشهر ده بإذن البارى– يبهج بنوادره مرتين القارى– وينزل كالعادة بجريدته على حضرة الوزير والواد– اللى

عاملين صنعتهم نهب أموال العباد– ويدرج في هذا العدد أخبار محفل ميدان الحرية– ويشهر بين الأمم شجاعة الشبان المصرية..".. ثم يتحدث في بقية هذا العدد بطريقته المعروفة عن غليان الجيش في مصر، واستبداد الحكومة الرياضية في علاج شئون الوطن..

وتتميز أعداد الحاوى القليلة التي أصدرها بتسجيل مقدمات الثورة العسكرية، بل أن ما كتبه فيها يعتبر في ذمة المؤرخ فصولاً ممتعة لهذه الفترة من تاريخ مصر الحديث، مع الدقة الملحوظة في العرض والتفصيل، وإنْ جاء ذلك كله في كلامه العامي المسجوع الذي كان يطرب له المضريون إذ ذاك، وما أظن إلا أنه يطرب أيضاً المعاصرين منا، الدارسين هذه الحقبة من التاريخ.

صورة سيد العرب أحمد عرابي

استمع إليه يقول: "وردت لنا اليوم مراسلات عديدة، والأخبار اللى فيها يقينا مفيدة.. قال يوم المحمل العساكر المصرية، وهم عابرين أمام الحضرة الخديوية محدش منهم قال يعيش توفيق، والحق بيدهم لأن الجهادية، صبحت ذليلة تحت الوزارة الرياضية، يرسلوهم في المأموريات اللى ما ينتج منها إلا العار للممات، وللشركس يعطوا الرتب العظيمة، والسرارى الحلوة والانعامات الكريمة، لكونهم من جنس ناظر الحربية، مساح جوخ الحضرة الرياضية، فزعلت من الأمر ده الضابطان، وأرادوا يوروا العالم أنهم جدعان.. إنما لكونهم أصحاب عقل صحيح، وسعيهم دائماً مليح، تشكوا للواد وللوزير، من ناظرهم عديم التدبير"..

ثم يتحدث الكاتب عن عثمان رفعت وكيل الحربية "العجوز المدهول المخرف المجنون".. وما كتبه الضباط المسئولون لممثلى الدول الأجنبية ليطمئنوا على رعاياهم، مبيناً لهم أن أى خطوة إيجابية منهم لا تعنى أنها موجهة إلى الأجانب "وده فكر عظيم لأن الدول آدى مرادهم- وقصدهم يدخلوا قطرنا بحجة أنهم يحاموا على أولاد بلادهم".. وهكذا يفصل لنا أبو نظارة قصة إقالة وزير الحربية وتعيين البارودى مكانه في جميع صفحات المجلة، في دقة تامة لا تختلف أبداً مع أى مصدر صادق من مصادر التاريخ..

صورة ممثل الجيش يشكو لشيخ التمن أى السلطان تصرفات الخديوى السيئة

وقصارى القول في مجلة الحاوى، أنها تفقد بهاءها إذا أنكرنا مقام (مقدمتها) في بيان قدرها، فالمقدمة عنوان حسن جداً للمجلة نفسها، بل عندى أعز وأكرم من (الحاوى) نظراً لما احتوت عليه من موضوعات دقيقة، واشتملت عليه من صراحة من تبكيت المواطنين لانصرافهم عن الجد والعمل، وقبولهم الذل والخسف، هذا إلى أن المقدمة تشير بوضوح إلى السياسة المرسومة في توثيق العلائق بين مصر وفرنسا، فإن المترجم له قد سفر في هذه المقدمة عما يختلج به صدره من حب عميق لفرنسا، وتكريم لرسالتها بين الأمم والشعوب، وسوف نلقى ذلك، من الآن فصاعدا، واضحاً ظاهراً في جميع ما كتبه أو قاله يعقوب بن صنوع.

هذا عن (المقدمة) أما عن الحاوى نفسها فقد كادت تتخصص في الثورة العرابية، ولم يكن في محاوراتها أو موضوعاتها الأخرى شئ غير هذا الحادث الذي كانت له مقدمات ونتائج، وسجلتها الحاوى في تفصيل جميل، ودعتْ المواطنين إلى التشبه بضباطهم وجنودهم الشجعان وطرد حكومة "الواد الأهبل" والقبض على (الواد) نفسه ومحاكمته، وأن الكاتب لينذر مواطنيه بأنه "أن ما خلصتوا من الواد ورياض يا جدعان– أحلف بحب الوطن والحرية– وشجاعة التلامذه والجهادية بأنى أمزع الجرنال وأكسر النضارة– وأبيع خرج الزمارة والصفارة– بقى فوقوا يا أولادى من غفلتكم وورونى أمال شطارتكم– إنما يكون الأمر عن قريب– وأنا حالاً أجيكم بالحبيب"..

أبو نظارة لسان حال الأمة المصرية

منذ شهر إبريل سنة ١٨٨١ حتى توقف صدور صحفه في سنة ١٩١٠ صدرت (أبو نظارة وأبو نظارة زرقا وأبو نظارة) وهي أسماء ثلاثة لصحيفة واحدة، غير أنها أسماء متقاربة الشبه، غلب عليها الاسم الأخير الذي عاشت به الصحيفة أكثر من عشرين عاماً.

صدرت أبو نظارة صورة صادقة لما سبقها من صحف، ولم يتغير العنصر النفسي فيها ولم يطرأْ عليه قط وهن يسقط من قدرها أو يقلل من مقامها في تاريخ الصحافة المصرية بل أن عصرها الذهبي مقبل بعد قليل.

وقد صدرت (أبو نظارة) بعد أن صادرت الحكومة المصرية الحاوى، وعاقبت بالنفى بعض من حملها، وفي ذلك يقول يعقوب بن صنوع مخاطباً

الخديوى توفيق "قد أمر وزيركم بسوء تدبيره المستحسن لدى سموكم بنفى شخصين من معتبرين البلد بسبب وجود جريدتى معها".. وقد نشر العدد الأول من "أبو نظارة" في السنة الخامسة من صحف المترجم له، وكانت تصدر كل عشرة أيام أو كل أسبوعين، وقليلاً ما كانت تزيد المدة على أسبوعين بين العدد والعدد، وكانت بعض الأعداد تصدر في ثمانى صفحات، وبعضها يصدر في اثنتى عشر صفحة، أما بقية الأعداد فكانت من أربع صفحات كغيرها من صحفه الأخرى، ولها شعار هو "لسان حال الأمة المصرية الحرة"..

وتتميز أبو نظارة بالمقالات الأدبية التي نشرها يعقوب خاصةً بالثورة العرابية إبتداءً من العدد الثاني في سنتها الخامسة بعنوان (الصيحة الأولى)، وهو يبصر فيها مواطنيه بخطر تدخل الانجليز، ويدعوهم إلى التآلف والتكاتف والاتحاد لانقاذ شرفهم وتحسين أحوالهم المالية والسياسة والاجتماعية، وهو الخطاب خاصة إلى علمائها في يخاطب فيها الأمة عامة ويوجه بعض الصيحات..

ويضيق الكاتب بمواطنيه وتكاسلهم، فينشر بابا جديداً بعنوان (الآزفة) ويحرر فيه آزفة بعد آزفة، يعلن فيه سخطه على رجال مصر الذين سلموا في حقوقهم ، فجعلوا أنفسهم مطايا للوزراء والخديويين ، الذين استنزفوا أموال مواطنيهم وقبلوا الذل فأضحوا عبيداً وسط أمم لا سيد فيها ولا مسود ، وقد حرر هذه الأزفات بأسلوب عربى ممتع، قلما نجد له نظيراً في صحف يعقوب المختلفة..

وبالرغم من أعجاب يعقوب بشريف باشا فإنه لم يتردد في الحملة عليه حملة شعراء حين أصدر قانون المطبوعات، وفيه من القيود مالا يهضمه تفكير الأديب المنفى في عاصمة الحرية، وأن كان هذا القانون قد استقبل في مصر نفسها استقبالاً حسناً وتظهر هذه الحملة العنيفة في رسم صدر به الصفحة الأولى، وفيه يكمم شريف أفواه الكتاب ويربط أياديهم أمام ممثلى الأجانب الذين رحبوا بهذا الضغط ، ويقول أبو نظارة تعليقاً على ذلك "اكسروا قلامنا وسدوا أفمامنا برضنا ننتصر على أخصامنا ونكسر أنف أظلم حكامنا والرب كريم يسعد أيامنا"..

قصد المترجم له مما كتب ومما نشر من صحف أن يبصر مواطنيه بما لا يعلمونه من خبايا السياسة المصرية وحوادث البلاد الداخلية التي كان يتعذر على صحف مصر أعلانها بأية صورة من الصور وإلا تعرضت للمصادرة والإغلاق غير أن يعقوب بن صنوع– كصاحب رأى– كان يمثل المعارضة المتطرفة، فهو يمدح شريف باشا حين كان شريف بعيداً عن السلطان، فإذا ولى أمور الحكم وأفسح المجال للبرلمان، ورضى أكثر الناس عن الحكومة الشريفية لم يرض أبو نظارة بل كان ضمن الساخطين، لأن شريفاً لم يخاصم الخديوى توفيق ، ولم يكن نم طبائع الأشياء أن يخاصم الوزير الدستورى أميراً نزل عند رأيه في احترام الدستور، ووعد بالتمكين للحياة الدستورية في هدوء ودون قلقلة قد تفسد القضية المصرية وتسيئ إلى مقدرات البلاد..

أن ابن صنوع لا يؤمن بهذا ، لذلك نراه يسخر من شريف ويسخر حتى من حياته لاخاصة، فقد كان الوزير يهوى (البلياردو)، ورأى الجيل هذه الهواية سوءاً تذكرها له الصحف الخصيمة كلما هاجمته سواء قبيل الاحتلال أو بعده ، وكان من بين الصحفيين الذين ذهبوا هذا المذهب يعقوب بن صنوع، فهو يكتب متخيلاً ساحراً أراد أن يخلص مصر من توفيق وشريف تلبية لرغبة يعقوب "فكذا مرادى يا شيطان، بأنك تأمر اثنين من أهل الجان، واحد يخطف الواد الأهبل ويرميه، في نابولى يا كل مقرونه عند أبيه، والثانى يأخذ بلطف أبو شرف رئيس الوزارة، ويسلمه في يد أبي نظارة، يلعب معه بلياردو بباريس"..

ولم يخل عدد من أعداد (أبو نظارة.. لسان حال الأمة المصرية الحرة) من نقد لتصرفات الحكومة الشريفية وخاصة حملته الشديدة على "قانون المطابع والجرائد".. وهكذا وقف يعقوب موقف المتطرفين في مصر من شريف باشا الرجل الدستورى. الذي كانت صحافة مصر وصحافة ابن صنوع من قبل تدعو له وترجو أن يكون على رأس الحكومة، فإذا تم لهم الرجال لم تعجبهم سياسته المعتدلة، ولم يرضوا عن أساليب حكمه، فهوجم برفق في مصر، واشتد عليه الهجوم في باريس..

وليس غريباً على أبي نظارة هذا المذهب في الرضاء والسخط على الناس، فهو شديد الحساسية حتى ليتناقض في رأيه أكثر من مرة في سنة واحدة، ويتأثر كطبيعة المصريين بالحوادث تأثراً سريعاً يفسد عليه الأحكام في بعض الأحيان، ومن أجمل الأمثلة على ذلك قصته مع السيد عبد الله

النديم، أنه يراه في مارس ١٨٨٢ عالماً من الأعلام فيقول "السلام عليك يا سي نديم يا قرة عين قراء جريدة الطائف، الله الله على ذوقك السليم، يا حاوى الظرائف واللطائف، أحلف بحب الوطن يا عم، أن كلما أتى جرنالك يزول عنى الهم من حلاوة أقوالك، ومقالاتك الأدبية نورت مصرنا، ونبذاتك السياسية جددت عصرنا، وحياة دقنك يا عزيزى، من عشقى في فصولك الفريدة بأترجمها بالفرنساوى والانكليزي"..

ثم استمع إلى رأيه في عبد الله نديم في ٩ يونيو ١٨٨٢ "أيها الولد الأبر، كنت أظن أن الذمة والشرف توجبان على كل إنسان خصوصاً على من تحلى بخدمة الحرية والمدنية أن يكون متصفاً بشعار الحق والانصاف، حافظاً للجميل لا تلفته المقاصد الشخصية ولا الغايات الذاتية عن الحق، فقد قيل: لمن الله قوماً يضيع الحق بينهم، ولكن لما كان لكل امرئ من دهره ما تعود، وكان الطبع غالباً على التطبع مهما كان صاحبه كشفت يد الأيام ستر الخفا عما يكنه الضمير، فاتضح الصبح لذى عينين، وبان لى الآن خطأ ظنى، وعلمت أن الحق هو عبارة عن ترويج المصالح.. وذلك لأنى تلوثُ بلسان الأسف وطالعت بعين الاستقامة ما حواه عدد ثلاثة وأربعين من جريدة الطايف الصادرة في ٢٥ جماد الثاني، وإذا بك قد أتيت فيه ببعض جمل وعبارات خالفت فيها ما تستلزمه الذمة وخرجت عن جادة الحق والانصاف"..

صورة السيد عبد الله نديم وقد جاء ذكره في أكثر من موضع

تلك كانت سجية يعقوب بن صنوع، لا يتردد في تعديل رأيه في شخص ما إذا تراءى له انحراف في الرسالة التي اتبعها وهو لا يفرق بين كاتب أو وزير، وقد رأينا هذه السجية مضطردة في صحفه جميعاً، وأنه لم يغير رأيه قط في عدة أشياء، إيمانه بوطنه وحنانه إليه، ثم مخاصمته للخديويين فيما خلا عباساً الثاني وهجومه المتصل على الانجليز وسياستهم في مصر والسودان، وقد بقي على هذه الآراء حتى قضى في سنة ١٩١٢، فلا عجب إذن أن رأيناه فيما بعد مادحاً لشريف، فعلى قدر ما يقدم الوزير لبلده يجد من المتر حوله التأييد والتشجيع.

أبو نظارة زرقا

لسان حال الأمة المصرية الحرة

> يمضى أبو نظارة في طريقه يؤدى رسالته الوطنية والصحفية، فيغير اسم صحيفته تغييراً آخر فيسميها (أبو نظارة زرقا– لسان حال الأمة المصرية الحرة) ويتم هذا التغيير بصدور العدد الثامن الصادر في السنة السادسة بتاريخ ٢١ أبريل سنة ١٨٨٢.

وقد أخذ ينشر مع المتن العربى في كثير من الأعداد ترجمة فرنسية طغت أحياناً على صفحات الصحيفة، ويعتذر الكاتب عن ذلك بقوله "وصغرت الخط لجعل محل للترجمة الفرنسي اللى طلبتها منى جميع محررين أوروبا لدرجها في صحفهم الغراء، فإن شاء الله من الآن وصاعد النظارة تصدر عربى وفرنساوى".

ومن الجديد الذي رأيناه في (أبو نظارة زرقا) في عامها السادس نشر أول نعى في صحفه جميعاً، غير أنه نعى غريب طريف، أنه في إطار متسطيل مجلل بالسواد، ينعى فيه شاهين باشا أحد خصومه من كبار الرجال في عهد إسماعيل وننشره كاملاً لنتبين كيف تسيطر عواطف صنوع على آرائه في الناس؟ حتى أولئك الذين فصل الردى بينه وبينهم بحجاب ثقيل، ولكنه لا يراعى رهبة القضاء ولا جلال الموت، قال "لما جانى خبر الكونت شاهين،

بأنه انتقل إلى الرحمة الآلهية طلبت له العفو من رب العالمين، وزالت كراهته من قلبى ونسيت الأسية لأن الله يرحمه كان قال لإسماعيل مدة ما كان الجندى في عز هو وناسه، إذا تجاسر حليم ودخل وادى النيل وراس افندينا أجيب لك رأسه، وآدى سبب كراهة أبناء مصرنا فيه، إنما أحنا قلبنا حليم قلنا عذاب نابولى سنتين يكفيه، يغفر خطاياه ويفتح له باب النعيم، يا أهل شاهين قتيل شيخ الحارة اتنيلوا والطموا على الخدين، سبع بيتكم مات في بلاد النصارة، ولا كان جنبه شيخ تقى يقرأ له كلمتين. آه عند طلوع روحك يا شاهين، ما كان حداك إلا إسماعيل الشيطان، فما خلاك تستشهد كالمؤمنين، ونتش من يدك يا كبدى القرآن..." وقد ترجم الكاتب هذا النعى الغريب إلى اللغة الفرنسية ونشره في إطار أسود.

ثم تعود الصحيفة فتواصل رسالة يعقوب الأصيلة، وتشغل صفحاتها بمجريات الحوادث في مصر، فتحذر عرابى وأخوانه من الخطر المحدق بالقضية الوطنية، وتشرح لهم ذلك شرحاً وافياً استغرق نحو ثلاث صفحات من المجلة وأخشى ما كانت تخشاه أن يقع الاحتلال الانجليزي للبلاد لخطأ من المسئولين مقصود أو غير مقصود.

وتتأزم الأمور وتضرب الإسكندرية وينطلق فيها الحريق فيأتى على مبانيها ، وتترامى الأخبار إلى أبى نظارة فينشر تفاصيلها ، ويبين لمواطنيه الموقف في صفحة جلل جانب منها بالسواد ، ثم يدعوهم إلى الجهاد ، ومن قوله "يا كبدى عليكي يا إسكندرية يابكا عينيى على سراياتك الفاخرة، صبحتك كوم رماد الجلل الإنجليزية" ويبين كذب الإنجليز بتحميل

المصريين مغبة هذا الحريق "ما لها أصل ولا فصل أخبار التلغراف، لأن جميعها صادرة من كلب البحر صيمور، فلا أصدق أن عساكر مصرنا الأشراف، ضد الإنسانية تحصل منهم أمور، الجهادي المصري يموت، في حب وطنه العزيز، فكيف يحرق وينهب البيوت.. وفي الواقع اللى حصل من القتل بإسكندرية، ذا جاب علينا الحق لأنه عار، ولو أن ابتداه من الجريح الدون والمالطية، اللى وزوهم إسماعيل وتوفيق وماليت المكار". ثم يبين يعقوب لمواطنيه أنهم أساءوا إلى بلادهم إذ لم يستمعوا إلى نصيحته ولم يوقعوا عريضة وينالوا فتوى العلماء بطرد توفيق، ثم يقول "اللى فات مات يا جدعان.. حاموا بشرف عن بلادكم يا فرسان ولعنة الله على من يسلم روحه للعدو أسير" ويتجه بكلامه إلى الأمة الإنجليزية يشكو إليها حكومتها "إنتى كريمة يا أمة بريتانية" إنما حكومتك بالمظالم مشهورة، إنتى بتدافعى في محافلك عن حقوق الأهالى المصرية، وحكومتك مرادها تخرب بلادنا المعمورة" ويمضى مادحاً الفرنسيين، متحدثاً عن موقف أحرارهم في البرلمان الفرنسي وعلى رأسهم كليما نصو، حاملاً على بعضهم لمؤازرتهم الانجليز في فعلتهم وفي مقدمتهم جامبيتا، ثم يشجع مواطنيه أخيراً "ماتخافوش ربنا كريم حليم، أن كنتم جدعان الانكليز يطلعوا من الديار المصرية..".

ويسخر يعقوب في نفس العدد من توفيق سخرية لاذعة قاسية تجاوز بها الحد في عُرف أيامنا وأيامهم، وأن لم تخل من طريف تميزت به صحف أبى نظارة، قال "وردت إلينا رسالة من مكاتبنا بالقاهرة يقول فيها أن توفيق توفى لكون أهل مصر حذفوا حرف القاف من اسمه والحدق يفهم، يقول أيضاً أن شبابنا وجدوا في اسم حليم أحرف يتركب منها لفظ مليح فلذلك

الأهالي بمصر بتسلم على بعضها بهذه الجملة "المليح جاى لنا عن قريب" مكاتبنا أسعد الله أوقاته أرسل لنا أيضاً دور جديد بتغنيه الأهالى على هوا المارسليزة الفرنساوية، وترجانا بدرجة في هذا العدد فها هو:

أرقصى وغنى يا توفيقه، وسلى عشيقك لورد صمور، اللى نجاكي من الحريقة، وركبك على الوابور، إرمى طربوشه يا صبية، والبسي لك برنيطة عالية، عرابي، طلبه، عبد العال هنوا توفيقه الانكليزية، يا ابن البلد يا فلاح، زفوا توفيقه للنكاح، هيا بنا، نرى توفيقه خارجة من برنا وهكذا يمضى مصوراً الخديوى توفيق في هذا الإطار الذي لا تخرج عنه سيرة هذا الخديوى في أى كتاب علمى مدروس حين لا يدلس على التاريخ أو يكتب التاريخ خضوعاً للظروف والملابسات كما كان يصنع بعض حملة القماقم من مؤرخى عصرنا سعياً وراء رتبة أو جاه!!

***

ثم يعترضنا في دراسة هذه الصحيفة عدد واحد باسم (أبو نظارة– مصر للمصريين) لم يكن له نصيب في أي معنى جديد انطوت عليه أبو نظارة زرقا، ولو أهمل في تاريخ صحفه لما خسر الكاتب شيئاً، فقد كان عدداً خاصاً بتذكير أهل الذكر في مصر بما سبق أن كتبه لهم من ستة شهور عما يلقونه اليوم من أحداث.

ثم يتلو هذا العدد، عدد واحد باسم (أبو نظارة زرقا– لسان حال الأمة المصرية الحرة) ثم تختفى الفقرة الأخيرة المكتوبة تحت الاسم الأصيل، وهذا العدد الختامى من تاريخ هذا الاسم يتضمن حديثاً عن أبى نظارة وما

سعى إليه في انجلترا كى يحول بين عرابي والإعدام، ومدى ما عرضه الانجليز من رشاوى رفض أن يقبلها، وسعيهم لنقله إلى لندن حتى تصدر صحيفته من هناك، وكيف أبى أن ينصت إليهم، أو يخون قضية بلاده التى وقف عليها حياته.

وحقاً وقف قلمه على خدمة القضية الوطنية كما سنرى في مستقبل صحفه الكثار، ولم نر قط تهاونا في كفاحه أو يأساً من استقلال وطنه وتمتعه بجميع الحريات.

أبو نظارة زرقا

صدر العدد الأول من (أبو نظارة زرقا) في مطلع العام السابع من تاريخ مجلات ابن صنوع في ١٩ يناير سنة ١٨٨٣ مصدراً بافتتاحية دعا فيها صاحبها لبنى وطنه بالعز والتأييد حتى يصبح الفقير غنياً والأعمى مبصراً والعقيم منتجاً! كما حمل فيها على إسماعيل وتوفيق وابنه عباس، وأن كان فيما بعد سيشمل عباساً بالعطف والتشجيع، وينهى المترجم له افتتاحيته بدعوة مواطنيه إلى الاشتراك في "النظارة الزرقاء الشهيرة" ويطلب إليهم أن يسرعوا "في إرسال العشرين فرنك، قيمة اشتراك الجريدة في السنة، بحوالة بوسطة أو عن يد بنك..".

وقد تميزت (أبو نظارة زرقا) بكثرة الرسوم فيها، فنجد في الصفحة الأولى والأخيرة رسمين يعبران عن معنى من معانى الساعة، كما نجد كلمة (زرقا) بدون همزة، إلى جانب تفاصيل واضحة عن المجلة، فنرى صاحبها

واقفاً بين رسمين يمثلان الحكمة والحرية وأن تغير رأس المجلة بين آن وآن ولم يتغير اسمها على أي حال.

وكلما قلبنا في صحف يعقوب وجدنا طابع الصحيفة وأهدافها أهم ما فيها، فهى سجل عظيم لإحداث مصر، يحسن ألا نفوت الفرصة، فننقل عنها بعض هذه الأحداث لنبين طريقة النظر الجديدة في الصحافة المصرية، هذا إلى أن خط المجلة قد تحسن بشكل ملحوظ، ونظم عرض الموضوع فيها في نهرين، كما أدخلت فيها أبواب جديدة كباب (السياسة) ولم يكن لها ترجمة فرنسية لمدة سنتين، وأن كانت الرسوم قد احتوت على تلك الترجمة، ومن أبوابها الجديدة أيضاً "تلغرافاتنا الخصوصية" التي زخرت بها السنة الثامنة، وهي برقيات من تأليف المترجم له فيها المختار من الشتائم والسخرية، وسوف أعرض لها في سطور مقبلة.

وقد سار أبو نظارة على نهجه فحدثنا شائقاً في المخاطبة الأولى بين "شهامة حسام أفندى ضابط عسكري وقيافته وعياقته نومه الضحى أفندى.. الخ" عن حريق الإسكندرية ومذبحتها خاصة، فرمى في الحوار إلى أن الخديوى توفيق هو صاحب الجريمة ".. على الواد الأهبل مستندات وشهادات وحجج وأوراق وتلغرافات تثبت لمن أطلع عليها أنه هو الأمر بمذبحة اسكندرية، وجميع أهالي لندن ألزموا الوزارة الإنكليزية بتشكيل مجلس لتحقيق الدعوى ومحاكمته" وهو يحمل الخديوى وعصبته كل النتائج التي وصلت بمصر إلى هذا الهوان، ونشر في ذلك قصيدة ممتعة نسبها

لأحدهم نقتطف منها بعض أبياتها، فهى إلى دقة التصوير تجمع معانى أدبية لا بأس بها، بعنوان: "القول الوجيز في دخول الإنكليز":

يا راوى الدهر حدث عن أبي العجب

واندب زمان التصافى يا أخا العرب

ما بين جهل وحقد ضاع سؤددنا

واستأصلتنا يد الأرزاء والسكرب

هذا العزيز تخلى عن سيادته

للانكليز ولم يقبض سوى الكذب

***

كانت شرارة نار لم تكن أبداً

محتاجة في تلافيها إلى نصب

لكن حشوا رأسه غشا فأضرمها

حتى تجاوزت البلوى إلى اللبب

وبعد ربكته جاءوا لنصرته

لكنهم جرعوه لوعة الحرب

حنوا عليه حنو الذئب إذ نظرت

عيناه شاة تجر الرجل من عطب

فخال أن ثنايا الذئب باسمة

ومادرى أنها أنياب مختلب

***

مصر الفتات أبو سلطان أسلمها

وإنما أسلم الإسلام بالذهب

هم راسوه على النواب يرشدهم

فكان نائبة من أكبر النوب

وقد أثارت لهيب النار ندوته

فصار أولى بأن يدعى أبا لهب

تبت يداه على ما جاء من عمل

لم يأته خائن في سالف الحقب

***

فكم أصابوا برينا طوع غايتهم

وأغمضوا أطرفهم عن كل مرتكب

وكم أهاجوا بزور القول من فتن

وروجوا الكفر في جد وفي لعب

وهكذا مضت القصيدة الممتعة تحكى المصائب والخيانات التي حدثت، في صفحتين من أبي نظارة زرقا، وتؤرخ للاحتلال وأنصاره تاريخاً صادقاً لا غبار عليه.

ولا يتهاون يعقوب بن صنوع في الحملة على الخديوى إسماعيل وولده توفيق، فقد كان ذلك من أهداف سياسته العامة ، إلى جانب تلك الكراهية العميقة للاحتلال وأصحابه، وهو في هذه الكراهية ينفس عن نفسه كمواطن مصرى شريف، ويعبر أيضاً عن السياسة الفرنسية التي كرهت هذا الاحتلال ووقفت له بالمرصاد في كثير من المناسبات حتى تم الاتفاق الودى بعد ذلك بسنوات ، ومن العناوين الطيبة لحملته على إسماعيل وتوفيق ما نشره في معرض المقارنة بينهما وبين الأمير حليم وفي هذه المقارنة عرض الكاتب لسيرة إسماعيل في إيطاليا وما تعرض له من سوء المصير نتيجة اضطرابه في شئون السياسة وأموره الخاصة التي لا تليق بأمير كبير..

ثم لا ينهى المواطن الحر عن الدفاع عن القضية المصرية بجميع الوسائل والطرق، فيسعى خطيباً يعرضها في مدن فرنسا وعواصم أوروبا، ويسجل آراه في صحيفته، وهو ينشر أيضاً نحو صفحتين كاملتين عما صنعته "صاحبة السعادة الخاتون كارتر المحترمة" في هذه القضية وكيف

"عقدت محفلاً سياسياً دعت إليه جمعاً غفيراً من السيدات السياسيات مع بعولهن وأولادهم وبناتهن، وكلفت بعض الرجال السياسيين إلقاء الخطب في سياسة الدولة البريطانية بمصر- فتولى رياسة المحفل مستر وود- صاحب جريدة (المورننج بوست) وصار صاحب النحلة معاوناً أول له.." وكان هذا الاجتماع ناجحاً وموفقاً، وتعرض فيه المتكلمون لبربرية حكومتهم التى قضت على استقلال أمة متحفزة وسمحت للفساد أن يستشرى فيها دون وازع من ضمير وخلافاً لما أثر عن تقاليد الأمة الانجليزية، الأمر الذي يراه أحرار انجلترا مسبة في تاريخهم ويستوجب منهم السعى عند المسئولين للرجوع عن هذه الطريق وإخلاء مصر من الجنود الإنجليز.

ويعقوب لا يقف مجلته من الآن فصاعدا على القضية المصرية وحدها، بل يعرض لقضايا الشعوب المستعمرة في كل مكان، وخاصة الشعوب التي تخضع لحكم الإنجليز، وهو يعرض قضاياها ليعتبر مواطنوه ويروا فيها كيف يجالد ويكافح الأحرار في كل مكان، وقد صدر افتتاحية أحد الأعداد بموضوع عن الهند قدم له بأنه "وردت إلينا من أحد نبهاء الهند الرسالة الآتي درجها، فالمرجو من محبى الوطن والحرية بمصر أن يقرأوها بغاية التأمل ويفهموها كلمةً كلمةً ، فتظهر لهم خباثة الحكومة الانكليزية وسوء معاملتها مع من يقع تحت يدها، والعذاب الأليم الذي تذوقه للأمم التي تتسلط عليها هذه الحكومة المشئومة".

فهو في جانب من صحفه يروى لمواطنيه ظلم الانجليز ويبصرهم بسياستهم في داخل البلاد التي يحتلونها، ثم يبين لهم في جانب آخر العبث

الذي يعبثه أعداؤهم بالقضية المصرية في الميدان الدولى، وكيف يحاولون إخراجها من هذا الميدان لينفردوا بأمور البلاد، حتى أنهم دعوا إلى مؤتمر يعقد في لندن سنة ١٨٨٤ ولكنه كما يقول صحفينا "طلع طز فش" وقد أثبتت الأيام صدق ما ذهب إليه ، فلم تلق قضية مصر عناية صادقة من الدول الأوروبية . التي سلمت واحدة بعد أخرى للانجليز بما يريدون.

وهو دائب الكتابة في مجلته ليجاهد مواطنوه ذل الاستعمار ويكافحوا أعداءهم الانجليز، وله في ذلك أكثر من مقال وصورة ومن أمتعها مقاله بعنوان (الأحوال المصرية) وهي قطعة أدبية لا بأس بها، وقد جاء فيها ".. والنواح على الشبان الأحرار الذين ما أنبتتهم رياض مصر غصونا إلا وقد قطعت عليهم سبل الترقى ومنعوا ماء الهناء وهواء التقدم فلا نمو لهم إلا بالذل ولا يميلون إلا ميلة المسكين بعد دلال الشرف في منارة الأوطان، والأسف كل الأسف على الشيخ الكبير والطفل الصغير، فذلك لا يوقر وهذا لا يرحم.. والحسرة على الرجال الذين أفنوا أيامهم في خدمة الحكومة وقصروا أوقاتهم على صالحها وهم اليوم تفيض أعينهم من الحزن إذ لا يجدون ما ينفقون.. أفيقوا أفيقوا يا عشاق النوم أن معشوقكم هذا عدو لكم..".

ولما لم يعجبه خنوع مواطنيه كتب يقول "لا أدرى هل أنتم صخور صم أو ختم الله على قلوبكم وعلى سمعكم وعلى أبصاركم فأنتم لا تشعرون؟ هل أنتم مياه راكدة أو أنتم جبال راسخة لو أنتم من دباب سيبريه في أيام الشتاء؟ هل متم؟ فإن كنتم متم فلا أقل من أن تنتشر

روائحكم الكريهة، ما هذه الحالة؟ الانكليزي قد ابتلع بلادكم وأفقر أغنياءكم وأذل أعزاكم ودمر بيوتكم وسلب قوتكم وأهلك عساكركم وفرق شملكم.. وكل العالم في جلبة وضوضاء واستخبار واستفهام عن اخباركم وقلوب الأجانب في قساوتها قد تفتتت حزناً عليكم.. ومع كل ذلك أراكم كاشرى الأنياب غائرى العيون متقلصى الشفاء كأنكم في حانة.. يا أهل مصر! ما هذا السكوت. ما هذا الجمود.. والله والله والله. هذا وقت لو تقاعدتم فيه عن طلب حقكم لجحدكم كل إنسان حتى البرابرة والتكارنة والسومالية والسودانيون ولهم الحق بذلك".

وهكذا يبكت الكاتب مواطنيه وكان تبكيته يصل أحياناً إلى الشتائم فيتحسر قائلاً "ما فاضلشى في مصرنا إلا الجديان..".

ولم يعجبه في رجالا مصر في ذلك الوقت، أى فى سنة ١٨٨٤ إلا شريف باشا، ذلك الوزير الذى أبى أن يفرط في السودان ، وله موقف مشهور خُلد في التاريخ ، ويعقوب هنا منصف للناس والتاريخ ، فقد كان خصماً لشريف باشافى أكثر من مرة ، ولكنه مدحه أيضاً أكثر من مرة، وذلك كلما وقف الوزير موقفاً مشرفاً، وكانت أخر المواقف المشرفة ما ذكره عنه في أزمة سنة ١٨٨٤ على لسان شريف نفسه وهو يخاطب الخديوى بقوله ".. سعادتك سيد العارفين وتعلم أن رجل اختيار مثلى اللى قضيت طول عمرى شريف ما يصحش أنى أضيع شرفى على آخر الزمن.." ثم يرسم صورة ممتعة لمكانة رئيس الحكومة في ذلك الوقت بقوله

على لسان شريف باشا "أنا اليوم يا أفندم صبح رئيس نظار دولتك العلية أشبه بطرطور لأن لسوء حظ مصرنا الربط والحل في يد الجماعة".

أن صحفينا لا ينكر فضلاً لأحد، ويسجل هذا في إخلاص، مهما تكن بينه وبين صاحب الفضل من خصومات، وقد دأب على نشر المديح في كل من يرعى ذمة وطنه ولو لم يكن مصرياً، وحسبنا على ذلك دليلاً ثناؤه الجم على لويس صابونجى صاحب النحلة "وهي أشهر من أن تذكر، وكل مصري حر بها أخبر" ويعلن ابن صنوع فضل صابونجى على زعماء الثورة العرابية "ولولا منشيها– يقصد المجلة– الذي أخلص الجد وثبت على الكد في الاستنصار للسيد أحمد عرابى وأخوانه وسعى لدى زعماء الحرية ونصراء الإنسانية للتألب على أهل الفساد لكان عرابى اليوم قد باد" ويمضى متحدثاً عن أنه كان– أى لويس– واسطة خير بين "مستر بلونت الشهم الهمام وبين السيد أحمد عرابي..".

صورة السيد بلنت في تاريخ العرابيين تاريخ..

وقد نشر هذا تحت رسم لصاحب النحلة وهو من الرسوم القليلة النادرة للأشخاص التى وجدت في صحفه الأولى مرومة وسط إطار جميل، وكذلك نشر صورة للمستر بلنت وتدث عنه مترجماً لحياته نقلاً عن "جريدة النحلة الصابونجية" فذكر أن خصوم الحرية لمصر ادعوا أنه عين للانجليز، وأنه لم يصدق شيئاً من هذا بعد إطلاعه على مؤلفات بلنت عن الشرق وفضائله "فإن السيد ويلفريد سكاون بلونت حبيب الأمم الشرقية ، أما قرينته اللادى عنا ، فهى جميلة كحور الجنة، ليس فقط بالحسن والجمال ولكن

بالفضائل والكمال، لسانها بالعربي فصيح، ولفظها بلغتنا مليح، حفظت القرآن الشريف، ودرست كل شاعر عربي لطيف.."

وقد نشر صورتها في عدد تال مادحاسجاياها ذاكراً شمائلها في تفصيل، وأن ما ذكره يعقوب بن صنوع من ثناء على المستر بلنت، وما أضفاه عليه من تكريم لجدير به حقاً عند من يعرف تاريخ الثورة العرابية، وعند من قرأ عنه في صحف مصر أو في صحف أبي نظارة في باريس، فقد زاد الرجل عن العرابيين وقضيتهم، ونشر ذلك في التيمس جريدتهم الكبرى.

ويبدأ في (أبو نظارة زرقاء) تاريخ الحركة المهدية بما نشرته عنها المجلة من حوادث وبيانات ورسوم ساخرة بالإنجليز وبمكانتهم كجنود حرب، ومن أمتع ما نشر في هذا الباب تلك الأزجال التي تعرضت لرجال الإنجليز من ضباط الجيش أو من موظفى الحكومة المصرية المدنيين، فقرأنا زجلاً عن (دور الجنرال جردون) قال فيه الكاتب.

يا محلا الإنجليزية

أم عين زرقا وشعر أصفر

يا خسارة الصبيه

في جوزها العسكري الأحمر

شفتها امبارح يا اسيادي

ماكانش حولها انجليز

فقلت لها ياميليدي

جيف مى أكيس أيفيو بليز[٩]

***

أنا في عرضك وان كيس[١٠]

قالت جوديم بلادى فول[١١]

بلا فول بلا شعير

ما تتبغدديش علي

أنا ابن المهدى الكبير

حلمك على شويه

***

فشفنا المهدى منصور

والجردون في الشق مكتوم

---

(٩) يعنى أعطنى قبلة من فضلك يا سيدتى..

(١٠) معناها قبلة واحدة..

(١١) معناها لعنة الله عليك يا مجنون..

تانى يوم جابوه أسير

في مصيده سودانية

أمام المهدى الشهير

مع ضباطه إنجليزية

***

فإذا فرغ يعقوب بن صنوع من حملته على جوردن عقب عليها (بدور على كليفورد لويد) وهو وكيل الداخلية الإنجليزي وله تاريخ مشهور عرصنا له في مؤلفنا عن جريدة الأهرام بما يكفى لشرح سيرته في أخذه لأمور مصر الداخلية وقد جاء في هذا الزجل.

لو لم يكن باش دجال

ما كان علادسطون اختاره

قال جاء مصر يصلح لأحوال

خربها يخرب دياره

ياما نهب فلاحين

ياما غدر جهادية

ياما ظلم مساكين

ونفى شبان مصرية

أما ربي فعله عجب

كشف ستره فبان غشه

وفي شهر شعبان ورجب

أمام الناس سود وشه

ولم تقف السخرية عند حد، سواء اتصلت هذه السخرية بنظام الحكم والإدارة في مصر أو في السودان، ومن ذلك ما نشره تحت عنوان (تلغرافاتنا الخصوصية) وهي برقيات من صناعته وتشبه الأمثلة التي كان ينشرها منذ سنتين تحت عنوان (كلام فارغ وكلام مليان) ومن هذه

التلغرافات ما جاء "القاهرة في ٧ منه" وفيه يقول "سلطان باشا متوجه إلى لندن بمأموريتين أحداهما ينظر طريقة لإعفاء المسلمين من لبس البرانيط كأمرهم الذي جرى مفعوله في ١٥ مايو سنة ١٨٨٤- ثانيهما يتعهد للانجليز بتسليم بره مصر كلها ، ومرضاة الأهالى على الله ثم عليه بمبلغ أكثر شوية من الذي كان أخذه عندما سلمهم التل الكبير وكان ذلك عشرة آلاف جنيه..".

وتستمر (أبو نظارة زرقا) تؤكد سياستها في نقد أمور الداخل وكشف أستار السياسة الدولية تجاه مصر، وتشرح مقام المهدى في نفوس مواطنيه المصريين وتحمل على الإنجليز والنحس الذي حل بمصر بحلولهم، وتأتى في ذلك بمثال الكوليرا التي انتشرت في البلاد انتشار النار في الهشيم ثم لا يفوت المحرر بين آن وآخر الحملة على إسماعيل في منفاه، ومن هذا القبيل ما ذكره عنه وعن المجلة التي يصدرها في إيطاليا بقلم إبراهيم بك المويلحى فقال في خطاب مفتوح ".. طى جوابى هذا يابو توفيق تجد مقالات أحد من الخوازيق قطفتها من أعظم جرانيل باريس ولندن وروما وفينا وبرلين، أقراهم يا كبدى وابكى على روحك يا مسكين ، دول ذموك وهلهلوك وكشفوا سترك وحقيقة أحوالك ، وأخبروا جميع الناس بأن جرنال الاتحاد هو جرنالك.." إلى آخر ما جاء من تسفيه الخديوى وما احتوت عليه صحيفة الاتحاد التى كان يصدرها في الخارج من دعاية فجة تافهة.

وهكذا يختك يعقوب بن صنوع بانقضاء سنة ١٨٨٤ حقبة من سيرة صحفه، مليئة بالأحداث والعبر، ويستقبل بعد ذلك بعض الحقب

التي بلغت فيها صحفه غايتها من النضج والاستواء، وسجلت أحداث مصر كبيرها وصغيرها، وقربت إلى الأفهام كثيراً من المشاكل والمسائل التي كان يستعصى فهمها، ويدق هضمها على عامة الناس، وخاصتهم في بعض الأحيان!

الوطني المصري

وهذه صحيفة أخرى، من الصحف التي اضطرته الحكومة المصرية إلى إصدارها فقد أصدرها حين قرر مجلس النظار مصادرة صحيفته (أبو نظارة زرقا) حتى يتمكن بذلك من إسماع صوته في مصر عن طريق توزيع (الوطن المصري) على قرائه العديدين الذين كانوا يتشوقون إلى مجلته، وينتظرون أعدادها وجلين من مصادرتها في الجمارك المصرية.

والوطني المصري صحيفة تشبه في حجمها (أبو نظارة زرقا)، ولولا تغير الاسم لظنناها هي بنفسها، فهى لا تختلف عنها شكلاً أو موضوعاً، بيد أنها تميزت عن صحفه الأخرى باللغة الإنجليزية التي احتلت منها جزءاً واسع النطاق، وهي ترجمة طيبة لبعض مقالاته المنشورة في الصحيفة باللغة العربية.

وقد نشر المحرر اسم الصحيفة باللغة العربية محاطاً بترجمة حرفية لهذا الاسم باللغة الإنجليزية هذا إلى أن جميع التفاصيل الخاصة بالمجلة كاسم صاحبها وناشرها وقيمة الاشتراك في مصر وغير مصر في بلاد العالم وتاريخ الصدور وما إلى ذلك قد نشر باللغة الإنجليزية على رأس العددين النادرين اللذين صدراً منها في باريس.

وقد ذكر المحرر أنه سيصدر منها اثنى عشر عدداً، والصحيح أنه لم يصدر إلا عددين فقط حتى رتب أموره مع معاونيه في القاهرة، فأعاد إصدار (أبو نظارة زرقا) في الشهر التالى لصدور الوطنى المصرى، ونقصد بالأمور التي رتبها مع معاونيه هي التغلب على عقبات إدخال (أبو نظارة زرقا) إلى مصر دون أن تحجز في جماركها وذلك بطرقه المختلفة التي شرحنا طرفاً منها في فصل سابق.

وقد صدر العدد الأول من (الوطني المصري) في ٢٩ سبتمبر سنة ١٨٨٣ أي بعد مضى سنة على الاحتلال الانجليزي لمصر، وقد كان أبو نظارة يحسن لو استمر في إصدار صحيفته ومعها ترجمة إنجليزية، أو إصدار صحفه الأخرى ومعها تلك الترجمة حتى يمكن للانجليز في انجلترا أو في مصر أن يقرءوا هذا الصوت البعيد، ويتبينوا ثمه وجهة نظر الأحرار، ويحسوا– وخاصة الإنجليز المحليين– خطر صحيفته إذا قرأها المسئولون في دوننج ستريت، ولكنه يبدو أن ثقته في الفرنسيين وإيمانه بأنهم سيقفون إلى جانب المصريين جعل المحرر يعنى عناية خاصة بنشر ترجمة لمقالاته باللغة الفرنسية دون الانجليزية، وحتى العددين اللذين صدراً من الوطنى المصري لم يخل أحدهما من ترجمة فرنسية، وأن اقتصرت الترجمة على الصور والرسوم.

وقد صدرت (الوطني المصري) في ست صفحات، على غير المأثور عن صحفه التي كانت تصدر إلى ذلك الوقت في أربع صفحات فقط، ولُوحظ على هذين العددين النادرين أن المعارك التي كانت دائرة في

السودان حينئذ كان لها المكان المرموق فيهما، إلى جانب بعض الرسائل التي وردت للمحرر من "الجمعية الوطنية السرية بالقاهرة إلى أبي نظارة بباريس".

وفي هذه الرسائل يبدو أن وجهة نظرنا القائلة بأنه كان من صالح البلاد نشر ترجمة انجليزية في صحفه لما كان ينشره باللغة العربية من موضوعات، قد أحسها مواطنونا في ذلك الوقت، إذ جاء من الجمعية الوطنية بعد شرح ما أصاب مصر من سوء ".. إنما مصائبنا دى المهولة، عند أهالى أوروبا بالكلية مجهولة، فيجب عليك نشر جريدة سياسية تترجم أهم ما فيها إلى اللغة الانكليزية، والقصد في الترجمة هو عرض حال وطننا العزيز، على الأمة البريطانية لأن لليوم موجود بين الانكليز، كثير من محبى الإنسانية والانصاف كما كنا نعهده فيهم من قديم الزمان، فإذا سمعوا صراخ مصر ووقفوا على سوء حال السكان ، بادروا إلى إصلاح ما فسده فريق منهم أما جهلاً وأما تعمداً ونحن نبلغ القصد والمراد، وتعود لنا الحكومة الوطنية اللى حرمنا منها الواد".

ويكتب أبو نظارة حاشية على ما جاءه من الجمعية الوطنية السرية، يقول فيها "أنا مستعد لخدمة الجمعية الوطنية المصرية ونشر جرنالها ودرج جميع مراسلاتها فيه، فقط أرجو بأن كاتبى المقالات لا يمدحونى، مثل ما فعلوا في الجواب المحرر أعلاه لأنى ليست أهلاً لذلك، وكلما فعلته وسأفعله لإصلاح وطنى فهو فرض على كل مصري..".

وفي رأيي أن أحداً لم يكتب له في هذا الموضوع، وإنما هو نخيل أنه قد تلقى هذه الرسالة وغيرها من الرسائل ليعبر بها عما يعتلج في نفسه ويدور

في رأسه من أفكار وآراء، وهي طبيعة الممثل فيه، وله في ذلك أكثر من مثال لاحظناه في صحفه الكثار، وقد كانت فكرة ترجمة ما كتبه باللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية فكرته هو، وليست فكرة جاءته عبر البحار كما يقول، وهي فكرة صائبة آمن بها مصطفي كامل وغيره فيما بعد فنشروا صحفاً باللغة الإنجليزية ليتبين الإنجليز قضايانا المعروضة بصدق وأمانة.

وهكذا صدر العددان النادران فقطعا على (أبو نظارة زرقا) سيرتها قليلاً، إذ جاء العدد الأول من الوطني المصري بعد صدور العدد الثاني عشر منها ثم جاء العدد الثاني بعد ظهور العدد الثالث عشر، وهما على أي حال لا يعنيان أن يعقوب بن صنوع اعتمد عليهما في إبلاغ رسالته سواء للمصريين أو للانجليز، بل هما في اعتقادي من صحف "الضرورة" التي نشرها المترجم له حتى يتغلب على الصعاب التي اعترضت سبيل صحيفته الأصيلة، فقد كان الاحتلال الانجليزي قاسياً على الصحف في سنواته الأولى، فصادر الصحف المحلية الوطنية وألغاها، كما أصدر مجلس النظار في سنتي ١٨٨٣، ١٨٨٤ أكثر من قرار يحرم دخول جرائد بالذات إلى مصر، وفي مقدمتها صحف يعقوب والعروة الوثقى التي كان يحررها الأفغاني ومُحَمَّد عبده في سنة ١٨٨٤ ويصدر أنها في باريس..

فإذا أصدر المترجم له مجلته (الوطني المصري) إلى جانب (أبو نظارة زرقا) فإنما يصدرها من باب الحيطة وعلاج النقص إذا حدث ذلك حتى إذا صُودرت صحيفته الكبرى ظهرت مكانها مجلته الأخرى وحلت عند

قرائه محل صحيفته الأصلية، وتمكن بذلك من أداء رسالته على طريقته الفريدة التي أتبعها ثلاثين عاماً دون توقف أو استرخاء..

أبو نظارة مصر للمصريين

هي في ذمة المؤرخ أعظم مدارج النضح والاستواء في مجلات يعقوب بن صنوع، من حيث الشكل الذي صدرت فيه صحفه، إذ هى أكبر طولاً وعرضاً، وأجمل صورة ورسماً، وأدق إملاءً وخطأً ، ومن حيث الموضوع وتنوعه، والأسلوب وصحته، والفكرة حرارتها.. فمنذ سنة ١٨٨٥ سنشاهد داراً للنشر أو شيئاً يشبه دار النشر، مصدره انتظام حياة الكاتب المادية واستقراره في عاصمة النور، وشهرته بين الفرنسيين كمواطن لاجئ حر شريف..

صدر العدد الأول من (أبو نظارة– مصر للمصريين) في ١٠ يناير سنة ١٨٨٥ وكان آخر عدد صدر منها في سنة ١٩١٠ أى أن يعقوب بن صنوع مضى يصدر مجلته نحو ست وعشرين سنة، تقلبت فيها المجلة فبلغت فترة أوج العز والكمال، وانخفضت فترات فأصابها الهوان في شكلها وموضوعها، وهي في جل أعدادها خصصت جزءاً منها لنشر الموضوعات باللغة الفرنسية، فكانت الصفحتان الأولى والرابعة وقفاً على تلك اللغة، وكانت اللغة الفرنسية تطغى أحياناً على اللغة العربية فتملأ أكثر المجلة وذلك "لتفهيم الأوروبيين ما صارت فيه مصرنا الآن من النشاط والتيقظ وعدم قبولها الغفلة ، كذا اجتهاد أهلها في حزم الرأى وحسن المسلك

واتحاد الكلمة.." ومن الأمثلة على ذلك أيضاً أن المجلة في إحدى السنوات كانت تنشر ثلاثة أرباعها باللغة الفرنسية.

وقد تغير رأس المجلس عدة سنوات، فظهرت في سنة ١٨٨٥ بالعنوان الذي ذكرناه، ثم تغير رأسها في سنة ١٨٨٦ فأصبح (أبو نظارة– ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً.. ويأتيك بالأخبار من لم تزود) ثم عاد رأسها إلى ما كان عليه من قبل في سنة ١٨٨٧، ثم تغير تغييراً خفيفاً في سنة ١٨٩١، ثم تغير تغيراً ملحوظاً في سنة ١٨٩٣، ثم أصابها التغيير أيضاً في سنتى ١٩٠٤ و ١٩٠٧، وهذا التغير الذي شمل رؤوس صحيفته لم يغير من شكلها أو طابعها أو حجمها، بل مضت على صجيتها حتى ليفوت القارئ العادة أن يلاحظ هذا الذي سجلناه هنا من ألوان التغيير المذكور.

والجديد الخطير في شكل المجلة وروعتها، هذه الصور الممتعة الملونة عدة ألوان، وهي تنافس ما نراه اليوم من الصور الملونة ولا تقل عنها دقة وإخراجاً، ولم يستطع المترجم له أن يستمر في نشر تلك الصور البديعة في جميع السنوات ، فاختفت فترة طويلة من صحيفته ، ولم تعد إليها إلا بعد سبع سنوات على أن هذا لا ينفى وجود صوره ورسومه الأخرى ذات اللون الواحد ، في الصفحة الأولى أو الصفحة الرابعة ، وأن كان بعض الرسوم قد نشر في قلب المجلة في القليل النادر وقد صدرت الصحيفة في ورق الصحف الجيد وان كانت بعض الأعداد قد طبعت على ورق أبيض جميل.

وقد قام يعقوب بن صنوع بكتابة صحيفته أحياناً وطبعها على الحجر، وكان خطه من أقبح الخطوط التي مرت بتاريخ مجلاته، نظراً لضعف بصره الذي حال بينه وبين تجويد الخط أو كتابة الكلمات دون خطأ أو اضطراب حتى أننا نكاد نجزم بأن قبح الأعداد مصدره خطة الردئ ، وقد يستمر صدور الأعداد سنة كاملة على هذه الحالة ، ثم يتحسن بعض الشئ في سنة أخرى ويبلغ أقصى الجمال في معظم السنوات وقد رأينا مجلته فترة ما مطبوعة بحروف المطبعة ، فجاءت آية من آيات النشر والإخراج، إلا أنه عاد إلى خط اليد بعد نقل المطبعة من مكان إلى آخر واعتذر عن ذلك، ووعد بنشر الصحيفة بحروف مطبعية غير أنه لم يف بوعده.

ولم يكن صدور المجلة منتظماً، فقد كان العدد يصدر مرة كل شهر، وأحياناً يصدر مرة كل شهر ونصف شهر، واستمر يصدرها مرة كل شهر منذ ١٨٨٥ إلى سنة ١٨٩٠ ثم كتب يعقوب يقول في ورقة خاصة ملحقة بالعدد الصادر في ٢١ يناير سنة ١٨٩١ "قد ازداد رغائب مطالعى جرنالى لنمو أهميته، واتسعت دائرة الاشتراك فيه ولم تختص بمصر وسورية وتونس والجزائر والمغرب بل الهند والزنجبار وجزائر القمور وغيرها من البلاد الشرقية، والذي يؤكد لنا ذات أهمية الجرنال ونفوذه وانتشاره في وادي النيل مع شدة الحرس والمراقبين لمنعه.. وبناء على طلب القراء جعلنا صدوره مرتين في الشهر عوضاً عن مرة واحدة.." غير أن هذا الوعد المسجل لم ينفذ، بل أن مجلته مضت تصدر في بعض السنوات أربع مرات

فقط، وأن كان يصدر بجانبها وفي نفس الحجم مجلات مختلفة لم يحنْ الوقت بعد للتحدث عنها.

وقد ذكرنا أن يعقوب بن صنوع جعل مكانا ملحوظاً لترجمة فرنسية لما يكتبه باللغة العربية، وكان ينشر موضوعات كاملة بتلك اللغة لا علاقة لها بالمنشور باللغة العربية، غير أن هناك لغات أجنبية أخرى نافست اللغة الفرنسية في كثير من الأعداد وخاصة اللغة التركيبة التي كانت تبرز بين آن وآخر بمناسبة "المولد السلطاني الحميدي"، ثم احتفظت مجلاته جميعاً في أكثر السنوات بالتاريخ الهجري يتصدر رأس أعدادها كما كانت الصفحة الأخيرة مكاناً للتاريخ الفرنجى المعادل للتاريخ العربي، غير أنه كان يغفل أحياناً كثيرة ذكر التاريخ الميلادي.

بقى سؤالان قد يشغلان بال قارئ هذا الكتاب، أولهما عن مقدار النسخ التي كان يطبعها من كل عدد، وثانيهما عن الأسباب التي عطلت المجلة عن الصدور أكثر من مرة في الشهر؟

ويجيب أبو نظارة بمناسبة بلوغ صحفه العيد الفضى عن السؤال الأول بقوله ".. طبع كل مرة من كل عدد من الأعداد العادية ما يزيد عن عشرة آلاف نسخة أما الأعداد ذوات الأهمية مثل التي تضمنت عيد الجلوس والمولد السلطاني فقد طبع كل عدد منها ما ينوف عن الخمسة وعشرين ألف نسخة ، وبحمده تعالى فلقد طاقت مشارق الأرض ومغاربها ، وسلت الحزين على همه وملأت قلب المظلوم أملاً بزوال ناف العبودية من على أكتافه.." ثم نجد الإجابة على السؤال الثاني في قوله أنه تقدم في

السن وضعف بصره وكثرت أشغاله "بالتعليم والترجمة" فضلاً عن اشتغاله بإلقاء الخطب في المحافل والمآدب السياسية والعلمية، كل ذلك لم يمكنه من إصدار مجلته في بعض الأحيان أكثر من مرة في الشهر.

ويعتبر يعقوب بن صنوع صاحب الجريدة وكاتبها وناشرها، وأن قام بكتابة خطها كثيرون من الشرقيين، ووضع رسومها أكثر من رسام، غير أن موضوعاتها جميعاً من قلمه، سواء كانت باللغة العربية أو بأية لغة أجنبية، فقد كان الرجل يجيد كتابة أكثر من عشر لغات، غير أننا لاحظنا بين آن وآخر كتابات بقلم آخرين أفصحوا عن أسمائهم إفصاحاً ملحوظاً، وداوموا على نشر المقالات عدداً بعد عدد ، حتى ليخيل إلينا أنهم من محررى المجلة الأصليين ، وفي مقدمة هؤلاء القس لويس صابونجي صاحب مجلة النحلة التي تصدر في لندن.

***

أما سياسة المترجم له في صحفه جميعاً، فهي هي سياسته التي عرفناها له من قبل حتى سنة ١٨٨٤، ولا يزال إسماعيل وتوفيق، وخاصةً الأخير موضع سخطه وسخريته، ومن ذلك ما نشره تحت عنوان (دور) ولا تنصب السخرية على توفيق وحده بل تشمل المصريين الذين يرضون الذل ولا يرفضونه، استمع إليه يقول:

مستر توفيق ابن إسماعيل	ماله رفيق في وادي النيل
الناس سابوه لكونه خان	مصر وأبوه حتى السلطان
باع للأجنبى كل الأصحاب	أهبل وغبي غشاش كذاب

في مصـــــر رجـــــال يخلصـــــوهم   مـــن الأنـــدال اللـــى باعـــوهم

غير أنه يستغرض تهاون مواطنيه في ظروف سابقة، ويتذكر مواقفهم الضعيفة في الشدائد والمحن، فيعلق على ضعفهم وخورهم في عنف بقوله في فقرة من فقرات هذا الدور:

لا، دول بالهم توفيق بيسوقهم

ده وحل مش دم اللى في عروقهم

***

وتأخذ القضية السودانية وأبطالها مكان الصدارة في صحيفة ابن صنوع سنوات متصلة، فنجد تحية رائعة من قلم صاحب النحلة عن (عثمان دقمة بطل السودان) استغرقت الصفحة الأولى، وفيها يدافع صابونجى عن الثائر ويحمل على الإنجليز "إذا ذب المرء عن دينه وعرضه ووطنه كان أشد الناس ورعاص وشرفاً ومروءة فالبطل الهمام عثمان دقمة الذي أضحى على الانكليز أشد نقمة ، قد تفرد بين قواد السوادنيين بالبسالة والغيرة على حرية وطنه وقومه ، فلا لوم عليه إذا قاوم الانكليز والأجانب الذين حاولوا غزو بلاد نشأ فيها ، ولذلك لا ندرى بأى حق يصفه الانكليز بصفة عامةً " ثم يمضى مادحاً له ساخراً من الانكليز وجيشهم المدبر في السودان.

ويظهر أبو نظارة شماتته بهزيمة الجنود الانجليز في السودان تحت عنوان (برج ايفيل) وهو حديث عن هذا البرج ومهندسه فيزعم أنه كتب مقالاً من أعلى البرج ذكر فيه أنه يرى وادى النيل "من السودان إلى إسكندرية.. ويرى أسود السودان قد أخذوا الانكليز على أسنة رماحهم كأنهم كباب من لحم خنزير قد سيخ في سيخ مسقى ببول الحمير، وهم على صورة الجراد، ووجه الشبه أن الجراد لم ينزل بواد الأخربة.." وهكذا ينتقل إلى مدح شجاعة مواطنينا السودانيين، مؤيداً كفاحهم، راجياً نصرهم، فهو يعتبر نصرهم نصراً لمصر أيضاً.

ويتحدث المترجم له عن فتح السودان، ويرى ذلك خطراً على كيان مصر نفسها وافتئاتاً على حقوق السلطان، ووسيلة لإطالة بقاء الانجليز في مصر، ويرتب على هذا الموضوع آراء لا بأس من تسجيل بعضها ، فيقول أن الاحتلال "سايق قدامه عساكرنا المصرية، لمحاربة أخواهم السودانية، ومصاريف السفر من خزنتنا اللى مفاتيحها بيد الانجليز، فحزنت على مصائب وطنى العزيز.. وكيف الانجليز يشهروا الحرب على السودان؟ من غير ما يستأذنوا مولانا السلطان، يا هل ترى ديارنا المصرية ماهيش قسم من الممالك العثمانية؟.. عمرى ما أصدق أن سمو خديوينا من الحرب دى مسرور، لأن جنابه سيد العارفين، ويعرف أن محاربة السودانيين، نتيجتها مشمومة على وادينا، ومفيدة لأعادينا، لأنهم إذا انتصروا على السيد عبد الله العطايشى– يقصد التعايشى– ودقمة عثمان– يقصد عثمان دقنه– يتسلطنوا هم ذاقم على السودان، وإذا انغلبوا مثل أول مرة يتخذوا كسرقم حجة جديدة، لإطالة إقامتهم في ديارنا السعيدة؟ لا، لا، ديارنا

حزينة من يوم ما دخلوها، فنوا رجالهم وأفقروها.." إلى آخر هذا المقال الممتع الذي شرح جزءاً من سيرة فتح الانجليز للسودان.

ويعبث الانجليز بقبر المهدى، ويسوء ذلك السودانيين والمصريين، ويرى أبو نظارة أن يكشف للعالم ما ارتكبه المستعمرون من وزر، فنشر تحت عنوان (وحشية الانكليز وعدم مرحمتهم) قائلاً "ولابد بلغكم يا خلان، ما فعله من قساوة الانكليز، بمدينة أم درمان، بجثة السيد أحمد مُحَمَّد بطل السودان.. إلى متى تحلم على الانجليز يا رحمن، دول ثابروا على المظالم، وداوموا على الطغيان.. أف من الانكليز ياماهم وحوش، يا سلام عليهم متى قدرواما يعفوش.. نراهم اليوم يفتحوا مقابر الأبطال، ويخرجوا الميت ويفعلوا به أشنع الأفعال، وفعلهم ده المشئوم أجروه في المهدى المرحوم، أخرجوه من قبره وأمام أهله وناسه، بيدهم النجسة قطعوا رأسه، وأعطوها لابن أخى غوردون الجنرال الخسيس، اللى في عهد المهدى مات في أم درمان فطيس، وفرقوا أصابعه بينهم ورموا ما تبقى من جسمه الطاهر في بحر النيل.." ويكاد هذا العدد يكون وقفاً على فعلة الانجليز وتصويراً لبغيهم، باللغتين العربية والفرنسية وقد شرح هذا كله بطريقته الطريفة وأسلوبه العامي المسجوع، ورسم له صوراً بديعة تحكى المقول في وضوح يغنى عن الشرح الطويل.

وأن ابن صنوع لا يحمل على الانجليز فيما يعنى مصر والمصريين من شئونها المدنية أو يحمل عليهم فيما صنعوه في السودان من وحشية لم تراع حرمة الموتى، بل يحمل عليهم ويسخر منهم كلما جد في حياة الانجليز

جديد، فتجد أكثر من مقال وصورة ورسم عما يصادفه الانجليز في حربهم في الترنسفال ، وهو يشرح جهاد أصحاب البلاد ويسجل هزائم المستعمرين ، ويطالب مواطنيه بأن ينتهزوا الفرص ويقوموا قومة رجل واحد، ويفعلوا بالإنجليز ما فعله إخوانهم المجاهدون في جنوب أفريقيا.

ومن روائع البحوث التى عرض لها يعقوب بن صنوع شئون الحرب بين اليابان والروس في أوائل القرن العشرين، فقد حكى لنا في تفصيل موضوع تلك الحرب وأسبابها واحتمالاتها، ولم يفوت عدداً دون أن ينشر من أخبارها ما اعتادت نشره الصحف الأخرى، وزاد عليها بشرح الظروف وتفصيل الملابسات التى تحيط بالمحاربين، وبين قدر العلم ومقامه في توجيه تلك الحرب، منددأ بتأخر الروس مبشراً بتقدم اليابانيين، وقصارى القول أنه قرأ ودرس عن تلك الحرب ما هيأ لصحيفته أن تسجل الآراء والبحوث خير ما سجلته الصحف المعاصرة في هذا الموضوع الخطير.

صورة جنازة جدة توفيق.. وفي مقدمة المشيعين.. الثيران!..

وسوف نقرأ في (أبى نظارة) أموراً تكاد تكون خاصة لا علاقة لها بالشئون السياسية، ومنها ذكره لوفاة جدة توفيق ووالدة إسماعيل وتعليقه على جنازتها ساخراً بالكلام والرسوم ومنها حياته التى لا يغفل عن ذكرها فيما روى عن الناس من قصص وحكايات، وأنه ليحدثنا عن تاريخه حديثاً ممتعاً شائقاً لا يخرج عما نشرناه في فصول سابقة غير أنه يخشى أن ينساه مواطنوه إذا مات فلا يكون لجهاده أو لتاريخه نصيب بين الأحرار! وما

نظنه بعد أن ترجمنا له هذه الترجمة– على قدر ما وهبنا الله من خلة الوفاء للأوفياء– إلا سعيداً في قبره مرفوع الذكر بين الأحياء.

أنه يخشى أن ينساه مواطنيه ، ولكنه لا ينسى وطنه ومواطنيه ، وأن تحنانه لبلاده لينتزع منا العطف الشديد ، فقد تمنى أن يغيب عن وجه مصر عدوها المستعمر، وهو يقول أنه إذا حدث هذا "... كنت أودع قلمى وقرطاسي ، وأعود إلى مصر وأعيش بين أهلى وناسي ، لأن الغربة طالت على ووحشتنى الديار، ونظرى ضعف قوى وصبحت اختيار.. ويا هل ترى بعد هذا البعاد الطويل، يسمح لى الزمان بالعودة إلى وادى النيل، وأرى مبانيه وأتملى بأنس ذويه.. ولم يكن تمنى ذلك لضيق القماش، ولا لضنك المعاش ، ولكن الوطن عزيز وحبه في الفؤاد غزير، وكل إمرئ نقى النطفة ، لم يسل ذوق هذه القطفة ، وذوقها في فمى أحلى من الشهد ، وألذ من طيب المنام بعد كول السهد ، فإن كان لى فى مجارى الغيب أراه ، فقد بلغت من الحظ أوفاه ، وأن دنى قبل الرؤية الختام ، فمنى عليه السلام".

ثم نجده يشمت شماتة قوية حين يعفى نوبار من رئاسة الحكومة ، ويهلل لذلك فيؤلف تمثيلية بديعة بعنوان (سقوط نوبار) نشرت في عدة فصول ومناظر، واستغرقت العدد كله ، معروضة عرضاً جميلاً في أسلوبه المعروف، ويقابل هذه الشماتة حزن عميق حين تلقى نبأ وفاة سامى البارودي ، إذ قال "كان مرادنا أن تشحن صحائفنا بأخبار مسرة حتى يتسلى بها أهل الوادى على همومهم لكن وآسفاه تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن ، ولم يعلم ما فى الغيب إلا صاحب الغيب.. اذورد لنا ماكدرنا وهو

وفاة صديقنا محمود باشا سامى المعروف بالبارودي.." وقد بين مدى حزنه في المحاورة التي تضمنت نعى الوطنى العظيم.

وبعد قليل يقضى الخديوى، فيجلل جزءاً من الصفحة الأولى بالسواد ، وينشر تحت عنوان (توفيق) افتتاحية استغرقت العدد كله باللغتين العربية والفرنسية ، جاء فيها "أن الليالى والأيام لترينا عجائب لم تكن لنا على خاطر وبال ، لا يعلم بما يجرى إلا مدبر الأمور وباسطها.." ثم يستطرد ذاكراً أن قضاء الله "لا يبالى بعالى ولا واطى" مبيناً أنه كان قد أعد مواد الصحيفة وفيها ما يسئ إلى ذكرى الفقيد غير أن قلبه "لم يزل رحيماً دائماً وصفوحاً" غير أنه سجل ما لتوفيق وما عليه "ولذلك قد أبديت كل ما أعلمه عن المتوفى من حسنات ومن مثاوى حتى يكون اعتباراً لمن يعقبه فيجتنب الخوض في فعل مثل ذلك..".

أن ابن صنوع يؤرخ لحياة الخديو المتوفى تاريخاً لا يمكن أن يوصف بالغرض ، فلم يذهب إلى ذمة إلى أبعد مدى ، إذ حاول أن يكون مؤرخاً عادلاً ، وأحسب أن تولية عباس الثاني بن توفيق كان لها دخل كبير في تهدئة الخصومة بين الكاتب وخصمه العتيد ، وأن من يراجع الثناء الجم والتكريم الملحوظ الذي أحاطت به صحيفة يعقوب الخديوى الجديد يجد ما يؤكد ما ذهبنا إليه من رأى، فقد شغلت صحفه بمقالات المديح وصور عباس الثاني في كل مناسبة من المناسبات، وكان مصدر هذا الإعجاب مواقف الخديوى الشاب من الإنجليز وانحيازه إلى المواطنين الأحرار حتى أن

المحرر لم يجد بدا وهو ينعى البرنس حليم صديقه ومعقد آماله، من ذكر عباس الثاني ذكراً فيه الولاء والوفاء، وفيه الثقة بالأمير الوطنى الغيور..

ويذكر يعقوب بن صنوع بين الأحياء والأموات، علماً، له في تاريخ مصر الحديث مكانة الدارة، يذكر مصطفي كامل بمناسبة وجوده في باريس فيقول ".. ونذكر هنا ما صدر من الخطبة الفائقة الرنانة التي ألقاها صديقنا مصطفي أفندي كامل في جمعية الجغرافية بباريس بشأن الدفاع عن مصر وأهلها وحقوقها فصار لها طنطنة في الجرانيل المعتبرة ، فسررنا لذلك وبادرنا بإشهارها حتى يطلع.. قراؤنا ويعرفوا ما لهذا الخطيب الفصيح من البلاغة وحب الوطن ، ونسأله تعالى أن يكثر من أمثاله ويمن علينا جميعاً برؤية ودينا حراً سعيداً"، ومن العجيب أننا– على قدر الجهد الذي بذلناه في دراسة صحفه– لم نجد إشارات كثيرة إلى مصطفي كامل بعد ذلك، مع أن هذا الزعيم الشاب قد ملأ الدنيا ، ومن بينها فرنسا ، برسالته التي هزتْ أعصاب الإنجليز وأرقت عليهم حياتهم في وادي النيل.

ومن تحصيل الحاصل كما يقولون ، أن نذكر أن أباً نظارة لم يفوت سنة من السنوات إلا وكان له حديث ممتع عن سلطان تركيا ، غير أن الجديد في أحاديثه شبه الخاصة ما رواه عن الصحف المصرية الحديثة، وخاصة تلك الصحف التي يعتقد الكاتب أنها صدرت لأداء رسالة تشبه رسالته وقد خص بالذكر "حمارة منيتى" فقال عنها "الجرايد ترجمان الأفكار وحدائق الأخبار، خصوصاً الجرائد الهزلية اللى بالبدايع محلية، وبالانكات

اللطيفة مرموقة، كجريدة حمارة منيتى المنظومة، اللى بتصدر في مصر المحروسة، وهي عند أهل الحظ أصدق من الحاجة نفوسة.."."

***

فإذا فرع يعقوب بن صنوع من هذه الأمور العارضة لم يترك عدداً من أعداد صحفه إلا وعرض لشئون مصر الداخلية، ومتاعبها في الميدان الدولى، وكانت لفرنسا مكانة خاصة في نفس المترجم له، فما تردد أبدا في ذكرها الذكر السحن كلما وجد فرصة لذلك ، وكثيراً ما حيا أصدقاء فرنسا وأكبر ثقافة الفرنسيين، بقدر ما حمل حمله شعراء، في سخرية لاذعة، على أولئك المتجلنزين، وقد أمتعنا في ذلك بمحاورة أدبية بين (سى لطيف أفندى وشعلان باشا المتجلنز) وهي محاورة استغرقت أكثر من صحيفتين، وقد مضت مصر فعلاً مبتلية بجماعة عاشت في أعطاف الأساليب الانجليزية، ولا يزال بعضها إلى اليوم– للأسف الشديد– يحيا في هذا الجو الغريب..

وأن ضيق يعقوب بأمثال أولئك المتجلنزين لا يمنعه من إعلان سخطه على كافة المصريين الذين وجدوا الذل أحلى مذاقاً من العسل ".. وده لكوننا أنذال، لأننا لو كنا صحيح رجال، ما كان يقدر لا اللورد كرنب ولا السردار كشنكار، يلزمونا نقول لهم ياس سار، يعنى نعم يا سيدى سمعا وطاعة، آه يا مصر ضاعت منك الغير الوطنية والجسارة والشجاعة، ده شى جنان، ما يتصوره إنسان، كيف خمسة آلاف عسكري انكليزي بستر حمر وفساتين، يدخلوا بلادنا ويحكموا على خمسة ملايين؟.." وهو يدرس

الحالة في مصر على هذا النمط الساخر الزاخر بالتبكيت والتأنيب، مستعيناً بتمثيلياته وقصصه بين آن وآخر.

وليس يعنى هذا أن الكاتب قد قطع أمله في مواطنيه، بل أنه ليذكر بالفخر جهادهم، فيحيى هممهم بمناسبة انقضاء عشرين عاماً على صفحه "صار لنا عشرين سنة تمام، ونحن نقاتل الظلام، وندافع عن حقوق الأوطان بالقلم واللسان..".

"وأما نحن فلم نزل في الغربة باذلين، جل همنا في المدافعة عن المصريين، كما يرى القارئ في هذا المجموع، اللى يدخل مصر ولو ممنوع، ونخبر القارئ حتى يفرح، أن جرنالنا هذا اللى في الانكليز يقدح من أعداده اللى صدرت في هذا العام خمسين ألف نسخة دخلت بلادنا غماً عن أنف اللئام، ولله الحمد اليوم جميع الوطنيين، بينادوا مثلنا مصر للمصريين، ولهم جرانيل تحامى عن وادى النيل، وبيكتبوا ويخطبوا بغاية الجسارة مثل والدهم أبو نظارة ، ده شيئ يفرحنا لأننا صبحنا اختيارية، فإذا توفينا هم يستمروا في الدفاع عن الوطن والحرية..".

إنما الهدف الرئيسي في صحفه، لم يكن هذا الذي عرضنا له، بل كان على رأس أهدافها الحملة المتصلة على الانجليز، وتعقب فعالهم في كل مكان ، وكشف مستورهم في كل أمر يتهيأون له، وإظهارهم بمظهر الجماعة الباغية التي استشرى فسادها في الأرض، حتى أغضبت عليها العالم جميعاً، استمع إليه ينطق لك إبليس مصوراً هذه الحقيقة "السلام على الهندى إللى صبح أرفع من البوص من موته من الجوع، وعلى الفلاح اللى رايح يكفر

من ظلم الانكليز، وعلى الطليانى إللى المستر بول غشه وتسبب في كسرته وتقهقره، وأزكى تحياتى أهديها لك يا أمريكانى يا بطل اللى خليت الانكليزى يحط ذيله بين وراكه" وهذا تصوير بديع لما صنعه الانجليز في شعوب الأرض، فأفقروا الهنود والفلاحين المصريين، وورطوا الإيطاليين في حرب خاسرة مع السلطان!

ثم يسخر من الإنجليز وما صنعوا بمقومات حياتنا تحت عنوان (فضائل الانكليز على المصريين) فيتعرض لمجلس شورى القوانين بقوله عن الانجليز "اللى دخلوا البلاد وظلموا العباد، وشتتوا شمل المصريين، ونهبوا صندوق الدين، وأنشأوا مجلس شورى القوانين اللى كله عجر وبجر لكل من هب ودب، وقال دى كلها فضائل بيعملوها للمصريين يكرم السامعين.." ثم ينتقل إلى المحاكم الأهلية التي أنشأوها.

"؟؟ وقال يا سيدى طلعت محكمة أهلية على ترتيب البلاد الأوروبية، وكلها جدعان ظراف وصبيان لطاف، وناس تخدم المحتلين، ودا اللى زاد في البله طين، يحكموا من غير ما يفهموا، ويفهموا من غير ما يحكموا، أشباح بلا أرواح.." ثم يختم سخريته اللاذعة بنقد المحتل في طرائق نظره إلى حرية الصحافة، وقد جاء ذلك في زجل طويل استغرق نصف صفحة كاملة.

وينتهز يعقوب بن صنوع الاحتفال بالعيد الستينى لولاية فكتوريا شئون الملك في بريطانيا، فيرفع إليها خطابا مفتوحاً ننقل فقرات من المقدمة التي قدم بها هذا الكتاب بعنوان (اسحبى عساكرك من مصر

تصبحى فريدة العصر)، وفيها يقول "هذا موضوع مكتوبى لجلالة فيكتورية ملكة الانجليز، اللى جرادها الأحمر بيتلف على وطننا العزيز، ربنا ينجينا عن قريب من شرهم، ويسلط عليهم زوبعة قوية تطيرهم لبرهم، لأنهم إذا مانكشحوش من هنا لسنا من وادينا، مين يعرف ايش يجرى فينا، نموت من الجوع لأن الجراد في الزيادة في الغيطان والبلاد، خلونا من الجراد الأحمر وسيرته الردية، احنا في مكتوبى للحضرة البريطانية، اللى اليوم ملوك الدنيا بتهنيها، على الستين سنة اللى بقى لها متسلطنة فيها، نقشت لها المكتوب ده بلسانها لسان الوز، وقلت لها أن كان بدك في الفخر والعز، والذكر الطيب بعد العمر الطويل، اسحبى عساكرك يا ستى من وادى النيل، إنما الكلام دا دخلته لها في قالب لطيف، بنفس سياسى ولسان ظريف، لا شك أنها لما تقرأه تنسر، إنما ما أظنش أنها تأمر بسحب عساكرها من البر، تيقنوا يا أخوانى أن العساكر الانكليزية ما ينجلوش عن مصر إلا بالقوة الجبرية، دول مايجوش بالمعروف، ماينفعش معهم إلا المتلوف، ما ألعن سيرتهم عن الموضوع بتبعدنا، ربنا يقطع جرتهم ومن ظلمهم ينجدنا ، المكتوب المذكور ترجمته بالفرنساوى، ودرجته هنا حتى يقراه ويفهمه كل أوروباوى، وتنقله عنى كل الجرائد الافرنجية، لما فيه من أهم الأمور السياسية.."

وهكذا لا يفوت أبو نظارة مقالاً إلا ويهاجم الانجليز ويتخير لهم ألوان الشتائم وأقبح الأوصاف كأعداء للوطن لا ينبغى أن يتهاون أحد في خصامهم.

وقد يلاحظ المطلع على مجلات أبى نظارة، أن صاحبها ينصرف فجأة عن شئون مصر حتى ليخيل إلينا أن السلطات المصرية أو البريطانية قد استطاعت التغلب على أريحيته واشترته فيمن اشترهم من الكتاب والصحفيين، وهذا نادر قليل في صحفه الكثار، إذ أن انصرافه عن شئون مصر لم يحدث قط إلا في سنة ١٩٠٠ حث شغلت صحيفة (أبو نظارة) بأمرين، الأمر الأول وهو الأهم، معرض باريس، فقد كانت سجلاً لهذا المعرض بصورها ورسومها ومقالاتها المفسرة الشارحة للمعرض وما احتوى عليه من أشياء، المبينة الأغراض التي يلتمسها، وقدره في حياة الشعب الفرنسى، وإعلانه عن حضارة ذلك الشعب العتيد، والأمر الثانى يتصل بحرب الترنسفال، وفى غضون الكلام عن تلك الحرب أشار الكاتب إلى مصر في بعض الأحيان.

ولم يصب ابن صنوع بحرج قدر ما أصيب بالحرج نتيجة عقد الاتفاق الودى بين الانجليز والفرنسيين سنة ١٩٠٤، فقد أغفل فترة التحدث في هذا الموضوع، ثم طلع علينا في أحد أعداد سنة ١٩٠٥ بحديث غريب، أوله يبدو فيه الحرج واضحاً والتخريج للحالة غير مفهوم، فقد انتزع من الاتفاق أملا لم يره أحد ولم يؤمن به إنسان "ماذا ينتج لوطننا العزيز من اتفاق فرنسا والانجليز، هذا سؤال أخوانى المصريين، سؤال ما يعلم به إلا رب العالمين، إنما أنا كل ما افتكر فيه يا سادة، أقول المولى قادر على تبديل الذل بالحرية والسعادة، ويمكن أن الاتفاق ده اللى زاد في نفوذ الانجليز وفي سطوتهم على وطننا العزيز، ينتهى بإنجلاهم عن البر وتعود لنا مصر ونتفنطز وننبسط ونسر، ربنا على كل شئ قدير، وعلى

السيد ينصر الأسير، قلبي يحدثني بأن اتفاق الدولتين علينا سعيد، ونرى مصر خالية من الحمر في عهد مولانا عبد الحميد".

وهذا كلام أقل ما يقال فيه أنه فارغ، اضطر الكاتب إلى نشره ليتخلص من الحرج الذي أصابه كمواطن مصري موضع عطف الفرنسيين، فأن التاريخ قد كذب كل ما ذهب إليه شعوره وإحساسه، بل أن منطوق الاتفاق يعنى أنه تثبيت للاحتلال وتأكيد له، وليس اتفاقاً سعيداً كما حدثه قلبه أن من شأنه أن يمهد لخروج الحمر من وادى النيل، وقد عقب المترجم له على هذه المقدمة برواية تتحدث عن الاتفاق، كان فيها موالياً للفرنسيين وخصماً شديداً للانجليز، غير أنها لا تعبر عن الواقع، والواقع كان يكذب الرواية ومقدمتها ولا يسجل شيئاً من حقيقة الحال، والحال كان أسوأ من أن يخرجه بن صنوع هذا التخريج الغريب! غير أن يعقوبا لم يخفف قط من معارضته للاحتلال وأذنابه سواء قبل الاتفاق أو بعده فقد حمل حملة شعواء على عالم دينى من أئمة الإسلام في مصر "كتب ببراعة السيال رسالة لم تزل محفوظة عند بعض الوطنيين تذكاراً لمروق ذلك الإمام عن واجباته الدينية والوطنية" فقد دعا الشيخ إلى مهادنة الانجليز والاستفادة من وجودهم في مصر لأن نظامهم "خفيف وظلهم لطيف وحكمهم يدر الخير، ولم يعرب لنا حفظه المولى عما نتج لأهالي تلك المستعمرات وفي مقدمتها الهند التى مر عليها الخصوصية الوطنية حتى تحمل رسالته المذكورة على أيدى الاحترام والاعتبار والامتنان، ونتخذ قوله صادراً عن نزاهة وصدق في الإيمان، وولاء وإخلاص في محبة الأوطان، وإلا

فيكون كلامه كواو عمرو، يكتبها ولا يلفظها القراء، ورسالته لا محل لها من الأعراب بين العلماء والأدباء".

ثم يعرض يعقوب بن صنوع لمشاكل البلاد الكبرى في أسلوبه العامى المأثور فنجد بحوثاً طريفة في مشكلة العقبة تحت عنوان (الأسد والنمر) ينشر المقال ويرسم له رسوماً ممتعة تصور حقيقة الحال، ويقف فيه إلى جانب السلطان في ثقة واطمئنان إلى قدرته على حل المشاكل! كما أشار في موضع آخر إلى الموقف الكريم الذي تقفه منا فرنسا وألمانيا وروسيا وذلك برسم بديع يبين إبليس يحمل انجليزيين إلى جهنم لسوء معاملة وإيطاليا لنا.

ولا نريد أن نطيل في تاريخ ما تضمنته جريدة (أبو نظارة) وإنما نسجل هنا طريفة من طرائفه التي تدل على بعد نظره ، بعد أن بينا قصر هذا النظر في الاتفاق الودى، أنه يختلف اختلافاً عميقاً مع كافة المصريين الذين هزهم الفرح بإقالة اللورد كرومر، أن المصريين يعتبرون تلك الإقالة نصراً مبينا لهم وللحزب الوطنى الذي يرأسه مصطفي كامل، غير أن ابن صنوع يتوجس خيفة من ذلك الحديث، وينصح بالتريث تحت عنوان (ما ترحوش لمن يروح لما تشوفوا من يجى) فيقول ".. تأملوا في المثل ده يا كرام، لأن له محل شاهد في هذه الأيام، بمناسبة استعفاء اللورد كرومر ونجلاه عن وادينا، بعدما عمل كيفه ربع قرن فينا، ودخول السار غرست في مكانه، وهو من أوفى أصدقاءه وأعز أخوانه، بقى ما تفرحوش في استعفاء اللورد كرومر وارتحاله، لما تشوفوا غرست خليفته وتتأملوا في أعماله..".

ويقص أبو نظارة على مواطنيه نادرة من تاريخ الرومان فيها الحكمة والبيان الصحيح، وفيها تفسير جمل لهذا المثل الذي يقول دائماً عامة المصريين، فصاحبنا ينقل إليهم أنه كان هناك "ظالم خاين غدار، طلع ذات يوم للحرب ومعه جيش جرار، فرأى عجوز شمطاء زى أم المستر بول، طالعة تجرى وراه وهي تصيح وتقول، ربنا ينصرك يا ملك الزمان، وتعود سالم غانم للأوطان، فعرفها الملك ودعاها فهرولت نحوه وهي تصيح وتقول لبيك أنا جارية بين يديك، فقال لها كيف تدعى لي بالفوز والظفر على الأعادى، وأنا قتلت أخوتك وزوجك وأولادك، وظلمت أهل بلادى.

فقالت له المرأة: أبوك كان ظالم وجبار، وكنا كلنا نتمنى له الموت طول الليل والنهار، فربنا قبل دعانا، ومن مخالبه نجانا، فمات وأنت خلفته في الملك على الرومان، فنراك فقته في الجور والظلم والعدوان، فلذلك نطلب لك العودة بالسلام من الجهاد لخوفنا أن مت يطلع خليفتك أزرط منك في الخباثة والرداوة والاستبداد".

ثم يقول الكاتب لمواطنيه "فعلى شان كدا أنا ما أفرحشى في الرايح، قبل ما أرى الجاى وأشوف أن كان يقبل النصايح، ويعامل أبناء مصر والسودان، باللطف والإحسان، وينسينا حادثة دنشواى، اللى حرقت القلوب، واستعاذت بالله من سمعتها كل الشعوب..".

لقد كان أبو نظاره يحكى لنا الحكمة في كثير من أقواله وملحه ونكاته، ولعل حكايته هذه من إمتى ما تضمنته صحفه المختلفة، وهو دائب التحذير لمن يحسن الظن بالعدو، دائب التأييد لمن يسعى لخدمة

وطنه، وأن استقباله لإعلان الدستور في تركيا، وتحيته لأعضاء جمعية الاتحاد والترقى، مثل طيب على اقتناصه الفرص في تمجيد الأحداث الكبيرة وأصحابها، سواء كان ذلك في تركيا أو فى أي بلد آخر حتى يمكن أن يأخذ منه المصريون العبرة فيعتبروا ويروا المثل فيحتذوه.

ويبدو أن الحماسة التي كانت تغلب على عواطف الكاتب في السنوات الأول هدأت بعض الشئ حين بلغت صحفه الثلاثين من عمرها، ولعل للسن والأمراض دخلاً في ذلك، وقد أشار هو منذ سنة ١٩٠٦ بأنه لم يعد قادراً على الكفاح كما عود قراءه، غير أنه يعد مواطنيه بأن يصدر صحيفة فرنسية في باريس تكون لسان الوطن في الخارج، وأن أعجزته السن والموارد عن الاستمرار في إصدارها حين تحققت أمنيته، إلا أنه لم يكف قط عن التلميح، ثم التصريح باعتزامه إغلاق صحفه، حتى حلت سنة ١٩١٠ وهي السنة التى مرض فيها ولزم فراشه حتى مات سنة ١٩١٢..

وأنه منذ مطلع القرن العشرين، وهو يحاول أن يصدر صحفه على النهج القديم غير أنه كثيراً ما اضطر إلى تأخير إصدار بعض الأعداد لأسباب التمسها، وما أكثر ما التمس من أسباب، كما أن الأخطاء المطبعية أو الخطية كانت انذاراً بقرب النهاية وأن جاء الرجل في تأخير تلك النهاية سنوات.

ومنها أنه أصبح "اختيار" ونظره ضعف، ثم أن بلاده وبلاد الشرق عامة قد قامت فيها نهضة صحفية ولا محل لصحيفته بين تلك الصحف،

وهذه الحقيقة سجلها وهو يختم نشاطه الصحفى العظيم..

وأنه منذ مطلع القرن العشرين، وهو يحاول أن يصدر صحفه على النهج القديم غير أنه كثيراً ما اضطر إلى تأخير إصدار بعض الأعداد لأسباب التمسها، وما أكثر ما ألتمس من أسباب كما أن الأخطاء المطبعية أو الخطية كانت انداراً بقرب النهاية وأن جالد الرجل في تأخير تلك النهاية سنوات..

التودد

أصدر يعقوب بن صنوع، إلى جانب صحفه الساخرة، عدة صحف أخرى، كان طابع الجد فيها غالباً على رسومها وموضوعاتها، وعلى رأس هذه الصحف مجلة (التودد) والتودد "جريدة شهرية أدبية علمية تجارية تحت رياسة جاك قطاوى بباريس ونظارة أبو نظارة" وقيمة الاشتراك فيها عشر فرنكات عن سنة واحدة وستة عن نصف سنة.. وهي في حجم الكتب العادية، وتفصح عنها مقدمتها إفصاحاً أبلغ من شرحنا، فقد قالت في العدد الأول:

"حمدا لمدبر الكون الذي أناط نجاح الأمم بالمعارف، وصاغ من العلم حلية بهية أدهشت كل تالد وطارف، وشيد منه أركاناً قوية كما شاء، وأنزل أهله أسمى الدرجات وسماهم بالأحباء، فهم مصابيح الأنام يستضاء بأفكارهم ويقتفى بآرائهم لهم السيادة على ما عداهم، ولم يختص بالفصاحة وتقرير الأخبار سواهم ، وهم المحتاج إليهم في جميع الأحوال ، وإلى أقوالهم المرجع والمئال، وما من أمة تقدمت وكثرت ثروتها وراجت متاجرها وزادت

قوتها وتنعم بالها إلا باقتدائها بأهل العم، وما من أمة خذلت وتضعضعت إلا باستبداد الرأى وسوء التدبير وحب الذات والاكتفاء بمشورة عدم الخبرة، والغفلة جهل والجهل لا يهتدى صاحبه إلى رشاد ولا يدريه فيطهره بالمداد، ممقوت عند العامة، منبوذ عند الخاصة، لا يكاد يذكر حياً أو ميتاً، وكفى العلم شرفاً أن يدعيه من لا يحسنه ويفرح به إذا نسب إليه، وكفى الجهل ذما أن يتبرأ منه أهله، وفي الأمثال السائرة، العالم حى ولو كان في منازل الأموات، والجاهل ميت ولو كان في منازل الأحياء، وصلاة وسلاماً دائمين على جميع الأنبياء والمرسلين"..

"وبعد لما رأينا هلال الشرق بعد انحطاطه آخذاً في الارتقاء إلى برج الكمال الذي كان حالاً فيه فيما مضى، وتنبهت العقول فاستضاءت بمشكاة المعارف ومصابيح الفنون نشرنا هاته الوريقات على رؤوس الأنام وسميناها بالتودد أملاً بأن تكون واسطة في الألفة والوداد بين الأمم ، وشبهنا ما طلع في سماء صحفها بالبدر المنير لمناسبة ظهورها في الشهر مرة كظهور البدر، وأن نورها مستفاد من عقول الأمم كما أن نور البدر الحقيقى مستفاد من نور الشمس، وأن كان نور البدر حسى (صحتها حسياً) ونورها معنوى (معنوياً) ولم تشتمل إلا على فنون ومعارف ومسائل علمية ومقالات أدبية وبعض من السياسة مما يلوح لنا من اللغات الأجنبية، ونسأل المولى أن يعم نفعها كل مريد لأننا لم نقصد بها سوى بث الأمن والراحة وتنوير العقول بالرغائب العلمية والآداب الدينية ، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير"..

وتختلف التودد اختلافاً عميقاً مع مجلاته الأخرى ، ويتناول هذا الاختلاف السياسى والمنهج والشكل في معظم سنوات صدورها ، فهى سجل لنشاط دول الغرب والشرق وراوية لتاريخ الزعماء والأمراء والملوك ، تفصل ذلك حتى تستغرق كل صفحاتها وقد لا نجد عن مصر شيئاً لأعداد متتالية..

وقد اقتصر المحرر فى ذكر مصر على تاريخها القديم، إذ نشر فصولاً متصلة عن تاريخها وآثارها، وعالج قصة بعض تلك الآثار في أكثر من عدد، وقلما كان يعرض للنواحى السياسية المعاصرة وخاصة في السنوات الأولى، وأن زخرن مجلته بعد ذلك في رواية الحوادث المصرية، ولم تشر إلى تلك الحوادث في دقة وعناية إلا حين كبر حجمها فبلغ حجم (أبو نظارة) وأصبحت في سيرة مجلاته معاوناً أصيلاً منافساً خطيراً ثم أضيف تغييراً طفيفاً إلى اسم الصحيفة ابتداءً من السنة الرابعة فسميت (تودد أبى نظارة) ويتصدر صفحتها الأولى قوله "تودد أبى نظارة، جريدة سياسية أدبية بالرسومات "محلية

وقد بين اتراكها وهو عشرة فرنكات في السنة وعنوانها وما إلى ذلك، وقد أدخل عليها جديداً في هذا الفصل الممتع الذي لا يكاد يخلو منه عدد وهو (فكاهة العقل) وهو حديث باللغة العامية، يشبه كثيراً ما كان ينشر في صحفه الأخرى الساخرة ، كما تتميز تلك السنة بأخصائية طريفة عن اليهود وتعدادهم في فلسطين.

ومن الموضوعات السياسية التي عالجتها (التودد) حملتها على الانجليز للفظائع التي يرتكبونها في حربهم مع البوير، وقد جاءت تلك الحملة تحت عنوان (البوير لهم رب يحميهم، ومن ظلم الانكليز ينجيهم) وقد بدأها بذكر سلطان تركيا وخديوى مصر عباس الثاني بالإكبار والإجلال، ثم دار بينه وبين "أبى خليل" حديث طويل ننقل منه بعض فقراته لنبين للقارئ مدى التطور الذي أصاب (التودد) فيقول على لسان أبو خليل "طيب والأبطال دول ونسوانهم وأولادهم لابد أنهم البوير الأسود.. الله الله على وجوههم السامية وعيونهم السود.. لا شك أن البوير دول سكان قرية من قرى الترنسفتال.. هجم عليها ليلاً الجنرال كتشنر وعساكره الأندال– وأخذوا الأهالى أسراء نساء ورجال"..

فيرد على أبو نظارة قائلاً: "نعم وها هو رايح يقتلهم بالرشاشة الجهنمية.. ولو أن من سلم سلاحه حرم قتله في شرايع الإنسانية" ثم يعقب أبو خليل "الإنسانية ملهاش اعتبار.. عند المستر شامبرلين الكماع وكتشنر الغدار.. ما أخبث وما أفحل الخصايل.. ولا البربر ما يعملوش دى العمايل.. وهو حد في الدنيا يقتل الأسرى ولا يرثى لحالهم. ويذبح أمامهم والديهم ونساهم وأطفالهم؟.. دول الانكليز ذاتهم بيسخطوا على كتشنر وشامبرلين اللى جلبوا لهم لعنة أهم الشرق والغرب.. بفعائلهم الذميمة في الحرب".

وهكذا أخذت (تودد أبى نظارة) تنافس في أحيان صحيفته الأصيلة (أبا نظارة)، وكانت تنشر أيضاً بعض الرسوم وصور الأشخاص ملونة، بل

أن التودد ومعها صحيفة (المنصف) وصحيفة (العالم الإسلامي) كانت جميعاً معاونات صادقات (لأبي نظارة) حتى حللن مكان بعض أعدادها، وقد استكملت التودد أو تودد أبى نظارة السنة الثانية عشرة ثم اختفت نهائياً بعد أن عاونت في أداء رسالة صحفينا الكبير..

المنصف

"المنصف" إحدى صحف يعقوب بن صنوع التي نشرها في باريس وقد أصدرها في حجم "أبي نظارة" الكبير في سنة ١٨٩٩ وقد ظهر العدد الأول في ١٥ فبراير من تلك السنة مطبوعاً على الحجر، مكتوباً بخط اليد، وهي كما يقول صابحها "جريدة سياسية أدبية تجارية مديرها ومحررها الشيخ، أبو نظارة المصرى بباريس" وقد جعل اشتراكها عشر فرنكات في السنة "ترسل إلى مديرها بطوابع بوستة أو بحوال تجارية" وقد رسم على رأسها رسومات فنية مما يرسم عاد على مناسبر الجوامع والمساجد..

وللمنصف رسالة وأهداف يحسن تسجيلها كما هي لنتبين الأغراض التى انطوت تحت نشرها، فقد وقع أبو نظارة على افتتاحية تضمنت ذلك كله وجاء فيها "أحمدك يا جميل الصنائع يا رفيع البدائع.. على فضلك الوافى.. وعونك الكافى، أمرت بالعدل والأنصاف.. وعملت ما في القلوب من وفاق وخلاف.. بفضلك يا مولاى نهضت.. وبمعونتك يا إلهى نشطت.. لأبدأ هذه الصحيفة.. بآراء جلية شريفة، إذ ليس الغرض من إنشائها سوى الدفاع بكل صدق وإقدام عن إخواني أبناء الشرق الكرام.. وتبيان حقوقهم.. وسوء معاملة الغير معهم ومع أمرائهم وملوكهم.. ومدح

من نر محباً لهم من الأمم الغريبة.. ومن يناضل عنهم في حو؟؟ الإنسانية.. ويحفظ حقوقهم ويفى عهودهم.. لا سيما حقوق الأمة الإسلامية.. وحقوق خليفتها المعظم ذى الفعايل المرضية ومن الانصاف أيضاً ذم من يجور عليهم ويظلمهم.. أو يسلبهم أموالهم ويستخدمهم.. أو يغور على بلادهم السعيدة. ويصبحها بحلوله في ضيقة شديدة.. ويتسلطن عليهم بحجة حمايتهم.. أو تمدنهم ورفع درجتهم.. وأرجو لجرنالي هذا أن يكون منصفاً لبنيه.. من محبى الشرق وأعاديه.. ولا فائدة في كثرة التكرار.. والإشارة تبنى النبهاء الأخيار.. وما أوضحته آنفاً فيه كفاية المعلومية. وأن اتحفتمونى يا قرائى بآرائكم الصائبة ومقالاتكم البهية بشأن معاملة الغربيين مع الشرقيين.. من قبائح وملائح فلا بأس من المحبين.. حتى أنى أبذل الجهد في الدفاع.. عنهم في هذه النشرة وأجيد القراع.. وأملى دوام هذا الشأن بصواب ومسرة واحسان، ولا فلاح.. إلا من الفتاح"..

وحقاً أدت المنصف رسالتها أحسن الأداء في هذه الفترة القصيرة التي عاشتها، أى في السنتين اللتين صدرت فيهما، وتميزت السنة الثانية من حياة (المنصف) بالتعرض للشئون السياسية الصارخة أن صح التعبير، وعاد الكاتب إلى حماسته الوطنية الملحوظة، فجعل بعض الافتتاحات حملات متصلة على الانجليز وسياستهم في وادي النيل ، وله في هذا مقال ممتع عنوانه (الشهر الآتي الانكليز.. تنجلى عن وطننا العزيز) وقد شرح ذلك في ألفاظ لا يمكن أن ننشرها في مطبوع، بل لا يمكن أن تحكى على لسان؟!..

واحتلت سيرة البوير وحربهم للانجليز مكاناً ملحوظاً من صحيفة المنصف في سنة ١٩٠٠ وفيها من الشماتة بالبريطانيين شئ كثير، وهو يربط دائماً في التحدث عن البوير وثورتهم، بين كفاحهم وكفاحنا، وقد حدثنا في ذلك حديثاً ممتعاً بعنوان (حقا البوير جدعان.. أما الانكليز جديان).

غير أنه حدثت فيه من فحشى القول ما يصعب علينا نشره، ويكفى أن نشير إليه في العنوان، والعنوان يغنى عن كل بيان!

العالم الإسلامي

نختم بهذه الصحيفة تاريخ النشاط الصحفى ليعقوب بن صنوع، وهي صحيفة تتميز بأشياء جديدة، تتميز بلغتها الفرنسية التي انفردت بها ولم تشاركها فيها لغة من اللغات الأخرى، وتتميز بورقها الضارب إلى الحمرة، وصورها الواضحة المعالم والأشخاص..

هي صحيفة (العالم الإسلامي) لمديرها ومحررها الأول "شاعر الملك الشيخ، سانوا أبو نظارة" وتقول في رؤوس أعدادها أنها صحيفة "أدبية تجارية، صناعية مالية" وتشير الرسوم المنشورة دائماً في رؤوسها إلى أنها صحيفة العالم الإسلامي حقاً، فقد رسمت على جانبي اسمها قبابا ومآذن وأشخاصاً باللباس العربى الأصيل، وباللباس المصرى، مما يعطى صورة عن أنها تعبر عن أصحاب تلك المآذن والقباب، وقد قررت عشرة فرنكات اشتركا لها وعشرين فرنكا مع (أبو نظارة) وخمسة وعشرين فرنكا للصحيفتين وما يصدر عنهما من ملاحق..

أما أهداف الجريدة فقد بينها صاحبها وهو يحدثنا عن مجموع أعداد "أبي نظارة" و"العالم الإسلامي" لسنة ١٩٠٧ إذ يقول "أهديك يا حضرة القارئ فائق احترامي.. وأرجوك قبول مجموع أعداد جريدة أبى نظارة ومجلة العالم الإسلامي..

"أيش قولك يا عزيزي في هذا الكراس الكبير.. ماهوش عال العال ومزين بأفخر التصاوير؟ اتحفه بنظرة من أنظارك الجليلة.. ترى فيه مقالات جميلة.. كلها مدح وثناء في جلالة مولانا السلطان.. حفظه وحرسه ونصره الرحمن.. وكذا ترانى أبجل علماء وشعراء الترك والفرس والعرب.. اللى أقوالهم كلها طرب.. إنما الأعداد دى وردت لك في مواعيدها يا صاح.. وأطلعت على ما حوته من الجمل والصور الملاح.. ورأيتنى أقاوم الانجليز. وأدافع بالباع والذراع عن حقوق وطننا العزيز.. وليل ونهار أرفع عينى إلى السماء وأقول: يا رب أنقذ مصيرنا من مخالب المستر بول.. لأن وادى النيل من الممالك العثمانية.. فكيف يتسلط عليه جيش الحكومة البريطانية ؟.. واليوم كل سنة وأنت طيب يا ابن الكرام".

هذا هو حديث يعقوب بن صنوع عن صحيفتيه في سنة ١٩٠٧، وهي من الصحف الباقية من صحفه الكثار، غير أن مجلة (العالم الإسلامي) لم تعمر طويلاً، ولم يصدر منها في سنتها الأولى إلا ثمانية أعداد، وفي سنتها الثانية لم يصدر صاحبها منها إلا أربعة أعداد فقط ، ثم اختفت ولم يبق من صحفه إلا (أبو نظارة) التي عاشت إلى سنة ١٩١٠ ولم تقف عن الصدور إلا بعد أن كاد أن يكون كفيف البصر، وبعد أن عجزتْ

صحته عن مداومة صدورها، وثقل به المرض فأمضى في سريره نحو سنتين يجاهد في سبيل الحياة من غير نتيجة حتى نزل به قضاء الله في سنة **١٩١٢** ونعته الصحف ووكالات الأنباء"..

□

الفهرس